مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية

Kirkuk University Journal: Humanity Studies

ISSN E:3107-3360 ISSN P:1992-1179

https://kujhs.uokirkuk.edu.iq/

Volume 21, Issue 2, June 2026 المجلد (٢١) ، العدد (٢) ، حزيران٢٠٢٦

Gnostic Insight in Fatwa Guidance and Behavior Modification: A Psychological and Educational Approach to "Ilm al-Mukashafa"

Asst. Lect. Mohammed Hshim Ddhahir ALsada

Department of Software, College of Computer Science and Information Technology, University of Kirkuk

Mohammedhashim@uokirkuk.edu.iq

معلومات البحث
تاريخ الاستلام 10 /03/2026
تاريخ التعديل 05/04/2026
تاريخ القبول 11/05/2026
تاريخ النشر 15/6/2026
نوع البحث بحث اصيل
Doi:10.32894/1992-1179.2026.170016.1371
IRAQI Academic Scientific Journals https://iasj.rdd.edu.iq

Abstract : This research addresses the problematic application of Islamic legal rulings and behavioral directives amidst the prevailing literalism and rigid formalism in contemporary religious discourse. These tendencies have stripped the Fatwa (religious edict) of its spiritual essence and overlooked the psychological dimensions of the inquirers. The study aims to explore the educational impact of "Ilm al-Mukashafa" (Knowledge of Unveiling—defined as the light of insight through which the spiritual guide perceives the hidden depths and inner maladies of souls) and "Healing of the Hearts" within the Islamic Sufi school, highlighting their role in shaping the Mufti's (Spiritual Guide's) faculties of "Kashf" (Unveiling) and "Firasah" (Spiritual Intuition).

The research problem centers on how to psychologically and educationally adapt these spiritual faculties—such as telepathic insight (Kashf al-Khawatir), consideration of spiritual stations (Maqamat), and managing states of spiritual contraction and expansion (Qabd and Bast)—into scientific tools for customizing Fatwas according to the inquirer's inner state. The study adopted the descriptive-analytical and deductive methods to examine the foundational texts of the Sunni Sufi heritage.

The research concluded that "Sufi Unveiling" is not a supernatural anomaly, but rather the highest degree of emotional intelligence and clinical diagnosis. It enables the spiritual guide to penetrate the psychological defenses of the seeker and modify behavior through precise Sufi mechanisms, such as ego deflation (Kasr al-Ana) and dropping the illusion of control (Isqat al-Tadbir). The research recommended the necessity of reintegrating the counseling heritage of Sunni Sufism into the academic preparation programs for teachers and Muftis as an effective alternative to literalist rigidity.

Keywords: Gnostic Insight, Sunni Sufism, Ilm al-Mukashafa, Behavior Modification, Spiritual Stations, Emotional Intelligence.

الباحث المسؤول : ظاهر ، محمد هاشم، البصيرة العرفانية في التوجيه الإفتائي وتعديل السلوك: (مقاربة سيكولوجية وتربوية لـ "علم المكاشفة")،

مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية ، مجلد ٢١ عدد ٢ حزيران ٢٠٢٦ Doi:10.32894/1992-1179.2026.170016.1371

مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية

https://kujhs.uokirkuk.edu.iq/

ISSN P 1992-1179

ISSN E 3107-3360

البصيرة العرفانية في التوجيه الإفتائي وتعديل السلوك: (مقاربة سيكولوجية وتربوية لـ "علم المكاشفة")

م.م. محمد هاشم ظاهر
كلية علوم الحاسوب وتكنولوجيا المعلومات/ قسم البرمجيات
Mohammedhashim@uokirkuk.edu.iq

المستخلص

يُعالج هذا البحث إشكالية تنزيل الأحكام الشرعية والتوجيهات السلوكية في ظل طغيان النزعة الظاهرية والحرفية الجافة في الخطاب الديني المعاصر، والتي أفرغت الإفتاء من محتواه الروحي وأغفلت الأبعاد النفسية للمستفتين. ويهدف البحث إلى استكشاف الأثر التربوي لـ "علم المكاشفة[١] (وهو نور البصيرة الذي يُدرك به المربي خفايا النفوس وأمراضها الباطنية) وطب القلوب" في مدرسة التصوف الإسلامي، ودوره في تشكيل مَلَكَة "الكشف والفراسة" لدى المفتي (الشيخ المُربي). تنطلق مشكلة البحث من التساؤل عن كيفية التكييف السيكولوجي والتربوي لهذه المَلَكات الروحية (ككشف الخواطر، ومراعاة المقامات، وتدبير أحوال القبض والبسط) لتصبح أدوات علمية في تخصيص الفتوى بحسب الحال الباطني للسائل. اعتمدت الدراسة المنهجين الوصفي التحليلي والاستنباطي لاستنطاق أمهات التراث الصوفي[٢]، وتوصل البحث إلى أن "الكشف الصوفي" ليس شطحاً غيبياً، بل هو أعلى درجات (الذكاء الوجداني [٣]والتشخيص الإكلينيكي[٤]) إذ يُمكّن المُربي من اختراق الدفاعات النفسية[٥] للمسترشد، وتوجيه السلوك عبر آليات صوفية دقيقة كـ (كسر الأنا) و(إسقاط التدبير). وأوصى البحث بضرورة إعادة دمج التراث الإرشادي لـ "التصوف السني" في برامج إعداد المعلمين والمفتين كبديل عن الجمود الحرفي.

الكلمات المفتاحية: البصيرة العرفانية، التصوف السني، علم المكاشفة، كشف الخواطر، توجيه السلوك، أحوال المريدين

المقدمة:

إن الفتوى والإرشاد في حقيقتهما الأصيلة ليسا مجرد إخبار آلي بحكم شرعي ظاهري (حلال وحرام)، بل هما عملية "علاجية وتربوية" تُعنى بصياغة الإنسان وتزكية باطنه. وفي مسيرة الحضارة الإسلامية، مثّل (أهل التصوف والعرفان) المدرسة الأعمق في فهم النفس البشرية؛ حيث تجاوزوا حدود "علم المعاملة" الظاهري المقتصر على حركات الجوارح، ليؤسسوا ما عُرف بـ "علم المكاشفة" وطب القلوب (الغزالي، ٢٠٠٥،١،ص٢٢). وفي العصر الحاضر، ومع طغيان المدرسة الظاهرية النصية التي تتعامل مع الإنسان كقالب مادي جامد، عانت العملية الإفتائية من (اغتراب روحي) جعلها عاجزة عن معالجة الأمراض النفسية المعقدة للمستفتين؛ فالفتوى القاسية التي تُصلح فرداً قد تُهلك آخر وتدفعه للقنوط.

من هنا، تتجلى الحاجة الماسة في حقل (التربية للعلوم الإنسانية وعلم النفس التربوي) إلى استنطاق التراث الصوفي الأصيل وإعلان القطيعة مع الجمود الحرفي؛ لإبراز كيف وظّف العارفون بالله مَلَكات "الكشف، والفراسة، واستبصار الخواطر[٦]" كأدوات تشخيصية (Diagnostic Tools) لتوجيه السلوك، وتقديم الفتوى كـ (بلسم روحي) يُراعي المقامات والأحوال

أولاً: مشكلة البحث وتساؤلاته

تتجسد مشكلة البحث في القصور التربوي والنفسي الناجم عن احتكار المدرسة الظاهرية لـ "صناعة الخطاب الديني والإفتائي"، وإقصاء الفهم الصوفي والروحي الذي يُعنى بدوافع النفوس وخفاياها، مما أدى إلى إصدار توجيهات تُدمر البناء النفسي للمستفتين لعدم مراعاتها للفروق الفردية. وتتبلور المشكلة في التساؤل الرئيس الآتي:

(كيف يُمكن التكييف التربوي والنفسي لأدوات "الكشف الصوفي والفراسة" في التراث العرفاني؛ لتكون مُوَجِّهاً علمياً يُسهم في تسديد المُربي لتخصيص الفتوى وتعديل السلوك الإنساني)؟

ويتفرع عن هذا التساؤل الأسئلة الآتية:

١. ما التكييف الإبستمولوجي[٧] (المعرفي) لمفاهيم كـ "المكاشفة وكشف الخواطر" في التراث الصوفي من منظور علم النفس التربوي؟
٢. كيف تتدخل المَلَكَة الروحية للشيخ المُربي في هندسة السلوك عبر إدارة أحوال (القبض والبسط) ومعالجة الآفات الباطنية كالنرجسية والغرور؟
٣. ما الدلالات التربوية والإرشادية المستنبطة من دراسة قصص وفتاوى أئمة التصوف (كالجنيد[٨]، وابن عربي[٩]، وصاحب الإبريز[١٠])؟

ثانياً: أهمية البحث

تكتسب هذه الدراسة أهميتها من مسارين رئيسين يخدمان أمة النبي عليه الصلاة والسلام:

الأهمية الأكاديمية (النظرية): الإسهام في تصحيح المسار البحثي الذي همّش التراث الصوفي؛ عبر البرهنة على أن أمهات الكتب الصوفية تُمثل التأسيس الحقيقي لـ "علم النفس الإرشادي والعيادي" في الإسلام، ونقل مباحث (الكشف والمقامات) من دائرة الكرامات السردية إلى دائرة التحليل السيكولوجي الدقيق لتعديل السلوك.

الأهمية التطبيقية (العملية): تزويد المشتغلين بالإرشاد التربوي والنفسي والخطاب الديني بآليات مُستمدة من مدرسة أهل الله (كإدارة القبض والبسط، وكسر الأنا والدخول على الله بالفقر) للتعامل مع المشكلات النفسية المعاصرة وتوجيه سلوك الأفراد برحمة وحكمة ولكي ينال توفيق الله ومدده لخدمة أم النبي عليه افضل الصلاة والسلام.

ثالثاً: أهداف البحث

١. التأصيل لـ "علم المكاشفة" كأداة تشخيصية تربوية تتجاوز جمود الفقه الظاهري وحرفية النصوص.
٢. الكشف عن العبقرية الصوفية في صياغة الفتوى بناءً على (مراعاة الأحوال والمقامات) لا بناءً على القوالب الجاهزة.
٣. استخراج وتحليل نماذج تطبيقية عيادية من مدونات التصوف تُبرز منهجية المُربي العارف في توجيه السلوك.

رابعاً: حدود البحث

يقتصر البحث موضوعياً على دراسة فاعلية مدرسة (التصوف الإسلامي السني) بمصادرها المعتمدة (كالرسالة القشيرية، وإحياء الغزالي، والفتوحات المكية، وقوت القلوب، والإبريز) في العملية الإرشادية والتوجيه السلوكي وما يضفيه من لمساة وروح ليس في الافتاء فحسب بل في جميع المسالك، وبما لا يناقض المدارس الفقهية الظاهرية.

خامساً: الدراسات السابقة (الفجوة البحثية)

في حين تناولت معظم الدراسات السابقة أدب المفتي وتغير الفتوى من منظور أصولي فقهي بحت (يُلامس المدرسة الظاهرية أو المقاصدية المحضة ككتابات الشاطبي[١١]، يتميز هذا البحث بأنه يعلن (قطيعة منهجية)

مع السرد الأصولي الجاف، ليقدم قراءة تكاملية خالصة من نافذة (التصوف السني)، تُزاوج بين (التربية الروحية) و(العلوم النفسية)، وتُعيد دمج مصطلحات القوم ضمن الآليات التشغيلية للإرشاد المعاصر.

سادساً: منهجية البحث وهيكليته

اعتمد الباحث المنهج الوصفي التحليلي لتفكيك المفاهيم الصوفية كالقبض والبسط، وكشف الخواطر، والمنهج الاستنباطي لتحليل نصوص أئمة التصوف كالغزالي[١٢]، والقشيري[١٣]، وابن عربي، والدباغ، واستخراج دلالاتها النفسية والتربوية. وقد التزم الباحث في التوثيق بنظام جمعية علم النفس الأمريكية APA الإصدار السابع).

التزم بلغة أكاديمية رصينة تجاوزنا النزعة الحرفية والظاهرية والقطيعة المنهجية مع السرد الأصولي الجاف، لنغوص في طب القلوب الذي أسسه أهل العرفان. وربطنا مصطلح كشف الخواطر الصوفي بمهارة اختراق الدفاعات النفسية، والقبض والبسط بالأزمات النفسية، لتنقلب المفاهيم الصوفية إلى نظريات علمية معاصرة.

سابعاً: خطة البحث (خارطة العمل)

لتحقيق أهداف الدراسة والإجابة عن تساؤلاتها، وبناءً على المنهجية المتبعة، اقتضت طبيعة البحث هندسته وفق خارطة عمل متسلسلة منطقياً؛ تنتقل من (التأسيس المعرفي والنظري) إلى (الآليات التشغيلية)، وصولاً إلى (التطبيق العيادي ودراسات الحالة). وقد انتظم البحث في مقدمة، وثلاثة مباحث رئيسة، وخاتمة، وذلك على النحو الآتي:

- المقدمة: وتضمنت البحث (المشكلة، تساؤلاته، أهميته، أهدافه، حدوده، الدراسات السابقة، ومنهجية)
- المبحث الأول: التأسيس المعرفي والشرعي: "علم المكاشفة" كأداة للتشخيص.
- المبحث الثاني: الآليات التربوية والسيكولوجية لتوجيه المسترشد في "الورشة الصوفية".
- المبحث الثالث: استنطاق التراث الصوفي: دراسات حالة عيادية وتربوية في فقه الباطن.
- الخاتمة: وتضمنت خلاصة مكثفة لأهم النتائج العلمية، تلتها قائمة المصادر والمراجع المعتمدة.

المبحث الأول

التأسيس المعرفي والشرعي: "علم المكاشفة" كأداة للتشخيص السيكولوجي والتربوي

قبل الخوض في الآليات التربوية والسيكولوجية [١٤] لـ "علم المكاشفة والفراسة" في المدرسة الصوفية، تقتضي الضرورة المنهجية إرساء القواعد المرجعية التي تمنح هذا العلم مشروعيته الإبستمولوجية (المعرفية). إن العرفان السني لا يؤسس نظرياته على فراغ أو خيالات، بل يستمدها من صميم الوحيين (القرآن والسنة). ويهدف هذا المبحث إلى تفكيك جدلية (الظاهر والباطن)، وتقديم الأدلة النقلية والمنطقية التي تُثبت أن "الحدس الروحي" والفراسة ليسا تجاوزاً للشريعة، بل هما أعلى درجات الغوص في أسرارها، تمهيداً لبيان التكييف التربوي لدور المُربي (الشيخ) في تزكية النفوس وتعديل سلوكها.

المطلب الأول

دلائل المشروعية وإثبات الرؤية: التأصيل القرآني والنبوي لـ "علم الباطن والفراسة"

لعل من أبرز العوائق التي تواجه العقلية الحرفية الظاهرية هي إنكارها لوجود معارف تُستمد عبر (الكشف والإلهام). غير أن الاستقراء الدقيق للنصوص الشرعية والتراث الصوفي السني يُثبت أن مَلَكَة "الفراسة النورانية" (والتي نُعبر عنها سيكولوجياً بالبصيرة والحدس الإلهامي Divine Intuition) هي حقيقة معرفية قطعية الثبوت. ويمكن إثبات هذه الرؤية وتأصيلها عبر الدلائل الآتية:

أولاً: الدليل القرآني القطعي (العلم اللدني والفرقان الباطني)[١٥]

تُمثل قصة نبي الله موسى مع العبد الصالح (الخضر) –عليهما السلام– في سورة الكهف، الوثيقة القرآنية الأعظم والأساس الإبستمولوجي الذي بنى عليه أهل التصوف مشروعية "علم الباطن والمكاشفة". فموسى كان يُمثل في القصة مقام (علم الظاهر والتشريع)، بينما كان الخضر يُمثل مقام (علم الباطن والمآلات) الذي عبر عنه القرآن صراحة بقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥.

وقد استنبط الإمام القشيري من هذه الآية دلالة قاطعة على أن الله يخص أصفياءه من أهل الورع بـ (علم لدني) و(كشف باطني) يتجاوزون به حدود الإدراك الحسي، ليُبصروا حقائق الأمور وعواقبها ودوافعها الخفية (القشيري،٢٠٠١،ص٣١٥).

ويُعضد هذا الإثبات قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]. حيث يُفسر الإمام الغزالي هذا "الفرقان" بأنه (نورٌ يُقذف في القلب) يُفرق به العارف بين المُخلص والمُرائي، ويُمكّنه من إدراك الدسائس الخفية في نفوس السائلين (الغزالي، ٢٠٠٥،٣،ص٢٥). وقد تواردت مصادر التفسير التي تعتني بهذه الأمور على هذا المعنى الإشاري الباطني للآيات المذكورة[١٦]. وهذا المعنى هو التطبيق الأسمى لما يُطلق عليه في علم النفس المعاصر (الاستبصار الإكلينيكي Clinical Insigh[١٧]).

ثانياً: الدليل النبوي (مشروعية المُحَدَّثين[١٨] والفراسة الصادقة)

تتضافر النصوص النبوية لتُثبت أن البنية النفسية للمؤمن المُتزكي تمتلك جهازاً إدراكياً يفوق الحواس المادية. ومن أصرح تلك الأدلة قوله عليه الصلاة والسلام: "اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله" (الترمذي، ١٩٩٨،٥،ص٢٩٨)[١٩].

كما طُبق هذا عملياً في تنصيص النبي عليه الصلاة والسلام على وجود مرتبة "المُحَدَّثين" (المُلهمين)، حيث قال: "لقد كان فيمن كان قبلكم من الأمم مُحَدَّثون، فإن يكن في أمتي أحد، فإنه عمر" (البخاري، ٢٠٠١،٤،ص٢٠٠). ويُحلل الإمام القشيري هذا المعنى مبيناً أن "المُحَدَّث" هو الذي يُلقي الله في روعه (قلبه) الصواب، فتنطق جوارحه بالحق من غير استدلال عقلي مسبق، وأن هذا الإلهام موروثٌ في أئمة الصوفية وأولياء الأمة الصادقين (القشيري، ٢٠٠١،ص٢٣٩). إن هذا الإثبات النبوي يمنح المُربي الصوفي (الشرعية المطلقة) للاعتماد على فراسته في قراءة دوافع المريدين وتوجيه سلوكهم بدلاً من القوالب الفقهية الجافة.

ثالثاً: الضابط العرفاني (التمييز بين إبطال الشريعة وتعميق الفهم)

لكي يُحكم أهل التصوف السني إثباتهم العقلي لـ "علم المكاشفة"، وضعوا (ضابطاً معيارياً صارماً) يحمي هذا العلم من الشطح ويُثبت رصانته. فهم لا يَدّعون بأن (الكشف) يأتي بتشريع جديد أو يُحلل حراماً معلوماً

بالضرورة (كما يفتريه عليهم أصحاب النزعة الظاهرية للأسف)، بل يُقررون أن الكشف هو (قوة إدراكية وفهم ثاقب[٢٠]) لمراد الشارع الحقيقي المُنطبق على (حال المستفتي).

يُقرر الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي هذا الضابط بدقة متناهية مبيناً أن الكشف العرفاني لا ينسخ ظاهر الشريعة، بل يقف على "أسرارها الباطنية ومقاصدها السنية"، وأن العارف الحقيقي هو الذي يزن كشفه بميزان الكتاب والسنة (ابن عربي، ١٩٩٩،١،ص٢٧٩).

إن هذا التثبت يُبرهن على أن "الفراسة" في المدرسة الصوفية هي أعلى تجليات (الذكاء الروحي والوجداني – Spiritual Intelligence)؛ حيث تُوظّف هذه البصيرة لتشخيص الآفات الباطنية (كالرياء والعجب) التي تعجز عن رصدها قواعد الفقه المادي الجاف.

خلاصة القول قد ثبت بالدليل القرآني (علم الخضر اللدني) والدليل النبوي (المُحَدَّثين وفراسة المؤمن) أن المدرسة الصوفية السنية لم تبتدع "علم الباطن والمكاشفة"، بل استلته من مشكاة الوحي. إن هذا التأسيس يُعطي المشروعية الكاملة للشيخ المُربي بأن يعتمد على "حدسه وبصيرته النورانية" كأدوات علمية مُعتبرة لتشخيص الأمراض السلوكية والنفسية للمسترشدين، وهو ما يمهد الطريق لفهم الآليات السيكولوجية والتربوية التي أدار بها أهل التصوف ورشة الإرشاد.

المطلب الثاني: من "علم المعاملة[٢١] الظاهر" إلى "طب القلوب": التكييف الصوفي للمُفتي كـ (مُعالِج للروح) عند الغزالي والمكي

إذا كانت الأدلة القرآنية والنبوية (كما بُيّن في المطلب السابق) قد أثبتت مشروعية "علم المكاشفة والفراسة"، فإن الخطوة المعرفية التالية تكمن في تحديد (الوظيفة الإرشادية) لمن يمتلك هذا العلم. لقد أدرك أئمة التصوف السني مبكراً القصور المنهجي والتربوي لـ "النزعة الحرفية" التي تكتفي بضبط الحركات الجسدية (الفقه الظاهري)، وأسسوا لقطيعة إبستمولوجية (معرفية) مع ما أسموهم بـ "علماء الرسوم"؛ ليُعيدوا تعريف المُفتي أو الشيخ المُربي بوصفه (طبيباً للقلوب–Spiritual Healer). ويمكن تكييف هذا الانتقال السيكولوجي والتربوي عبر المحاور الآتية:

أولاً: نقد "علماء الرسوم"[٢٢] والتأسيس لـ "فقه الباطن" (رؤية الإمام الغزالي)

يُعد الإمام أبو حامد الغزالي الرائد الأكبر في إحداث هذه النقلة المعرفية في مسار الفكر الإسلامي. فقد شن هجوماً علمياً دقيقاً في (إحياء علوم الدين) على المفتين الذين حصروا علمهم في دقائق "الفقه المادي" (كأحكام الطهارة المادية، والبيوع، والظهار)، وتجاهلوا أمراض القلوب (كالكبر، والرياء، والحسد، والعُجب)، معتبراً أن علم الظاهر المجرد لا يُنجي الإنسان ولا يُعدل سلوكه الباطني.

يُقرر الغزالي أن المفتي الحقيقي (من علماء الآخرة) هو الذي يجمع بين الفقهين؛ فإذا سأله السائل عن حكم ظاهر، لم يكتفِ بإجابته، بل نظر ببصيرته إلى (الآفة الباطنية) الكامنة فيه. يقول الغزالي مؤصلاً لهذا العمق: "إن علماء الظاهر أطباء أمراض البدن، وعلماء الباطن أطباء أمراض القلوب... ولا يجوز للعالم أن يتصدر لإرشاد الخلق حتى يُحكم علم الباطن ويُطهر قلبه، ليكون قادراً على تشخيص علل السائلين" (الغزالي، ٢٠٠٥،ج١،ص٢٣).

إن هذا التكييف العرفاني يتطابق جذرياً مع نظريات (التحليل النفسي Psychoanalysis)التي تُقرر أن السلوك الظاهري (العَرَض) ليس سوى انعكاس لعُقَد وصراعات لاشعورية؛ ولا يمكن تعديل السلوك بـ "أوامر قانونية جافة"، بل بالغوص في أعماق النفس ومعالجة جذورها Root Cause Analysis))

ثانياً: المفتي في "العيادة الصوفية": تحويل الفتوى إلى "وصفة علاجية" (رؤية أبي طالب المكي)

تتجلى العبقرية الصوفية في تحويل "الإفتاء" من عملية (معيارية/فقهية) تُطبق بمسطرة واحدة، إلى عملية (عيادية/إرشادية Clinical Counseling) وقد برع الإمام أبو طالب المكي[٢٣] في كتابه التأسيسي (قوت القلوب) في رسم معالم هذه "العيادة الصوفية."

فالشيخ المُربي عند المكي يتصرف تماماً كـ "الطبيب الحاذق"؛ لا يعطي دواءً واحداً لكل المرضى، بل يفحص (نبض الإيمان) في قلب المريد والمستفتي. يقول المكي واصفاً هذا المقام الإرشادي الدقيق: "فالعارفُ طبيبُ الدِّين، يعلمُ داءَ كلِّ قلبٍ ودواءَه، فيُعطي كلَّ ذي داءٍ ما يُوافقه من الدواء، ولا يَحْمِلُ الناسَ على وتيرةٍ واحدةٍ في التكليف" (المكي، ٢٠٠٥،ج٢، ص١١٢).

ويشرح المكي هذا المنهج مبيناً أن المربي العارف ينظر بنور بصيرته: فإن غلب على السائل الخوف واليأس داواه بفتوى (الرجاء والرخصة)، وإن غلب عليه الأمن والاغترار داواه بفتوى (الخوف والتشديد) (المكي،

٢٠٠٥،ج١،ص١٥٢). إن هذا النص الصوفي النفيس يُمثل في لغة العصر (التشخيص الفارق والتوجيه الفردي Differential Diagnosis & Individualized Therapy) فالمفتي الصوفي لا يُصدر فتواه بناءً على (موضوع السؤال) فحسب، بل يدرس (شخصية السائل) لتصبح الفتوى بمثابة (علاج سلوكي) يهدف إلى استعادة التوازن الوجداني (Emotional Equilibrium) للمسترشد.

ثالثاً: البعد الوقائي لـ "طب القلوب": حماية المستفتي من (الغرور الروحي).

إن إصرار المدرسة الصوفية على إعلاء شأن "فقه الباطن" ينبع من إدراكها لخطورة الاكتفاء بالتدين الشكلي الذي غالباً ما يُنتج آفة خفية تُسمى (النرجسية الروحية–Spiritual Narcissism) [٢٤]

فالمفتي الظاهري غير المتزكي[٢٥] قد يُفتي السائل بالإكثار من النوافل والصلوات والصيام، ظناً منه أنه يُقربه إلى الله، دون أن يدرك فراسةً أن هذا السائل مصاب بـ "العُجب"، وأن زيادة الطاعات الظاهرة ستزيد من كبره واحتقاره للعصاة!

أما المُربي العارف (طبيب القلوب)، فإنه يتدخل بـ "كشفه الإرشادي"؛ ليمنع السائل من نوافل العبادات الظاهرة، ويُشغله بـ (تزكية باطنه ومجاهدة نفسه ومذلتها) لكسر كبره وعلاجه من الرياء (المحاسبي، ٢٠٠٠،ص٨٥). وقد أصّل الغزالي لهذه السياسة الوقائية مبيناً أن إرشاد المبتلى بالكبر إلى كثرة الصيام والصلاة كمن يُطعم المريض المحموم لحماً دسماً يزيده مرضاً، بل دواؤه في كسر كبريائه أولاً (الغزالي، ٢٠٠٥،ج٣،ص٦١). وهذا هو صميم الغاية التربوية الكبرى: تحرير الإنسان من رقّ نفسه، لا مجرد تكثير أعماله الظاهرة.

خلاصة القول تأكد لنا من خلال استنطاق التراث العرفاني للغزالي والمكي والمحاسبي[٢٦]، أن المدرسة الصوفية السنية أحدثت ثورة منهجية في مفهوم (التوجيه الإفتائي). لقد سحبت البساط من تحت "النزعة الحرفية" التي تُعالج قشور الإنسان وتتجاهل باطنه، وأسست لمفهوم (الشيخ الطبيب) الذي يستخدم بصيرته الإيمانية كأداة للتشخيص السيكولوجي. إن المفتي في ورشة التصوف لا يُصدر أحكاماً، بل يصرف "أدوية روحية"؛ يراعي فيها الفروق الفردية، ويُعالج الآفات الكامنة كالعُجب والرياء، محققاً بذلك أسمى غايات التربية الإسلامية في بناء شخصية متزنة ظاهراً وباطناً.

المطلب الثالث

"التخلية والتحلية[٢٧]": التجرد من (الأنا) كشرط لـ "الفراسة النورانية" والموضوعية الإرشادي

إذا كان التأسيس المعرفي قد أثبت أن المُربي الصوفي يعمل كـ "طبيب للقلوب" يعتمد على (الكشف والفراسة) في تشخيص المستفتين، فإن العقل الأكاديمي والتربوي يتساءل بضرورة: ما هو الضابط الذي يعصم هذا "الكشف" من الانحراف أو الاختلاط بالأهواء والإسقاطات الشخصية للمفتي؟

لقد فطن أئمة التصوف السني مبكراً إلى هذه الإشكالية السيكولوجية الدقيقة (Psychological Dilemma)، فاشترطوا على من يتصدر للإرشاد والإفتاء أن يمر بعملية جراحية باطنية قاسية تُسمى (التخلية والتحلية). وتُمثل هذه العملية في حقيقتها التأسيس الأعمق لمبدأ (الموضوعية والحياد الإرشادي – Counselor Objectivity)، ويمكن تفكيك هذا الترابط عبر المحاور الآتية:

أولاً: "التخلية" وتفكيك (الأنا): المعالجة الصوفية لـ (التحويل المضاد)[28]

يُشكل صعود "الأنا (Ego) "وحب التصدر أخطر الآفات التي تعتري المشتغلين بالإفتاء والتوجيه. فالمفتي غير المُتزكي[٢٩] قد يُطوّع الفتاوى ليُثبت سعة علمه، أو ليُرضي غروره وتكثير أتباعه، مما يجعله فاقداً لأهلية الإرشاد.

وقد تصدى الإمام الحارث المحاسبي[٣٠] (رائد التحليل النفسي في التصوف الإسلامي) لتفكيك هذه الآفة في كتابه (الرعاية لحقوق الله). فاشترط على المُربي "التخلية" التامة؛ وهي تفريغ القلب من (الرياء الخفي، والعُجب، وحب الظهور). ويُحذر المحاسبي العالمَ من أن يغتر باجتماع الناس حوله، مبيناً أن المفتي إذا لم يقهر حظوظ نفسه، فإنه سيُفتي بـ "هواه المبطن" لا بنور الله (المحاسبي، ٢٠٠٠،ص٨٧).

إن هذا التشخيص الصوفي الدقيق يُعد استباقاً تاريخياً لنظرية (التحويل المضاد – Countertransference) في التحليل النفسي المعاصر؛ والتي تُحذر المعالج النفسي من إسقاط عقده الدفينة

وصراعاته اللاشعورية على المريض. فـ "التخلية" الصوفية هي الآلية الوقائية التي تضمن للمفتي تجرداً (Detachment)تاماً، ليقرأ حالة المستفتي بموضوعية خالصة خالية من التحيزات.

ثانياً: "التحلية" وصقل (مرآة القلب): التكييف السيكولوجي لصدق البصيرة:

عندما يستكمل المُربي مرحلة (التخلية)، ينتقل إلى مرحلة (التحلية)؛ وهي تزيين الباطن بصدق الافتقار، والرحمة بالخلق، ومراقبة الحق. وهنا تتولد المَلَكَة التشخيصية الصافية التي يُسميها الصوفية بـ "الفراسة النورانية والتسديد."

لقد صاغ الإمام ابن عطاء الله السكندري[٣١] هذه المعادلة السيكولوجية والروحية في حِكَمِه العطائية الباهرة، معتمداً على (استعارة المرآة[٣٢]) لتفسير آلية الكشف، حيث يقول: "كيف يُشرق قلبٌ صُوَرُ الأكوانِ مُنطبعةٌ في مِرآتِهِ؟ أم كيف يَرحلُ إلى الله وهو مُكبَّلٌ بشهواته؟" (ابن عطاء الله، ٢٠٠٨،ص٣٤).

إن القلب في المنظور العرفاني كـ (المرآة)؛ فإذا تلطخ بغبار الشهوات وحظوظ النفس، تشوشت صور الفتاوى والنوازل فيه، فأعطى قراءة مشوهة (Distorted Perception) لحال المستفتي. أما إذا صُقل بالتحلية والتزكية، فإنه ينعكس فيه نور الحق، وتنجلي فيه المشكلات السلوكية للمسترشد بـ (استبصار دقيق– Clear Insight). فالطهارة الباطنية للمفتي هي (الشرط الإبستمولوجي) الذي يضمن دقة الفتوى وخلوها من التشويه المعرفي.

ثالثاً: انقداح "الفراسة" كثمرة للتجرد الباطني (رؤية الإمام القشيري)

لا يعتبر أئمة التصوف الفراسة (موهبة عبقرية مجردة)، بل هي (ثمرة حتمية للاستقامة والتجرد الباطني). فالشيخ الذي أفرغ قلبه للحق، يعوضه الحق بنورٍ يكشف له خفايا النفوس.

يُعرّف الإمام أبو القاسم القشيري في (رسالته) هذا المقام العالي قائلاً: "الفراسة نورٌ يُقذف في القلب... وهي على حسب قوة الإيمان، فمن كان أقوى إيماناً، كانت فراسته أتم". وينقل عن شاه الكرماني[٣٣] قاعدته الذهبية: "من غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمر باطنه بدوام المراقبة... لم تخطئ له فراسة" (القشيري، ٢٠٠١،ص٢٣٨).

هذا الانضباط الصارم للمُربي يُنتج لديه حالة من (اليقظة العقلية والروحية – Mindfulness)، تُمكّنه في ورشة الإفتاء من تطبيق أعلى درجات (الاستماع النشط والتعاطفي–Listening Active & Empathetic). فهو لا يسمع كلمات السائل المنطوقة فحسب، بل يقرأ لغة جسده، ويلتقط ذبذبات قلقه، ويُدرك دوافعه الخفية (Hidden Motives)التي يعجز المستفتي نفسه عن البوح بها، فتأتي فتواه وتوجيهاته بمثابة الجراحة الدقيقة التي تستأصل المرض من جذوره.

تأسيساً على ما تقدم، يتضح لنا المرجعية المعرفية لـ "التوجيه السلوكي والإفتائي" تكتسب كمالها ورونقها من (المدرسة الصوفية السنية). لقد أثبت التأسيس القرآني والنبوي مشروعية "علم المكاشفة والفراسة"، ليُحدث أئمة التصوف (كالغزالي والمكي) قطيعة منهجية مع النزعة الظاهرية الجافة، مُعيدين تعريف المُفتي بوصفه (طبيباً للقلوب ومعالجاً سيكولوجياً). ولضمان موضوعية هذا التشخيص الباطني، اشترط العارفون (كالمحاسبي وابن عطاء الله) خضوع المُربي لعملية "تخلية وتحلية" صارمة، تُجرده من طغيان (الأنا) وإسقاطاتها النفسية، ليصبح قلبه مرآة مجلوة تعكس نور الفراسة، وتُدرك الفروق الفردية والدوافع الخفية للمسترشدين. إن هذا التأسيس الإبستمولوجي المتين يُمهد الطريق لولوج (الورشة الصوفية) في المبحث القادم؛ للوقوف على الآليات التطبيقية التي يعتمدها المُربي في تعديل السلوك وصناعة الإنسان.

المبحث الثاني: الآليات التربوية والسيكولوجية لتوجيه المسترشد في "الورشة الصوفية"

بعد أن أرسى المبحث الأول الأسس الإبستمولوجية[٣٤] (المعرفية) والشرعية لـ "علم المكاشفة"، وأثبت مشروعية اعتماد المُربي على بصيرته النورانية كأداة للتشخيص بعد تخليه عن حظوظ (الأنا)، ينتقل هذا المبحث من مربع (التنظير) إلى مربع (التشغيل الإرشادي). حيث يُسلط الضوء على الديناميكية[٣٥] التي تُدار بها العملية الإفتائية والتوجيهية داخل "الورشة الصوفية"؛ وكيف تتحول المصطلحات العرفانية الدقيقة (كالأحوال والمقامات، التلوين والتمكين، والقبض والبسط) إلى استراتيجيات سيكولوجية وتربوية متطورة. يهدف هذا المبحث إلى بيان الآليات التي يعتمدها أئمة التصوف السني لـ (تعديل السلوك)، واحتواء الأزمات الوجدانية، وتقديم الفتوى بوصفها هندسة للروح لا مجرد قوالب فقهية جامدة.

المطلب الأول سياسة "التلوين والتمكين[٣٦]":تفريد التوجيه لأختلاف "الأحوال والمقامات[٣٧]"

تُعد سياسة (التنميط) وإصدار فتاوى وتوجيهات معلبة تُطبق على جميع السائلين بمسطرة واحدة، من أخطر الآفات التي تدمر العملية التربوية. وفي المقابل، أسست المدرسة الصوفية السنية صرحها الإرشادي على مبدأ (تفريد التوجيه Individualization of Guidance)، مستندة في ذلك إلى أداة تشخيصية بالغة الدقة تُعرف بـ (علم الأحوال والمقامات). فالمُربي العارف لا يُصدر توجيهه حتى يُحدد موقع المستفتي في خارطة السير إلى الله: هل هو في مرحلة (التلوين) والاضطراب، أم في مرحلة (التمكين) والاستقرار؟ وتتجلى هذه المقاربة السيكولوجية عبر المحاور الآتية:

أولاً: "الأحوال والمقامات" كأداة للتشخيص السيكولوجي (بين الانفعال العابر والسمة المستقرة)

يُفرق أئمة التصوف بدقة متناهية بين (المقام) و(الحال). فالإمام القشيري يُعرّف "المقام" بأنه الرتبة التي يكتسبها السالك بمجاهدته (كالتوبة، والصبر، والتوكل) وتصبح صفة راسخة فيه. أما "الحال" فهو ما يَرِد على القلب من طوارق إلهية (كالفرح، والحزن، والقبض، والبسط) من غير تعمد، وهو سريع الزوال ومتقلب (القشيري، ٢٠٠١،ص٥٣).

إن هذا التقسيم العرفاني يُعد التطبيق الأقدم والأدق لما يُعرف في علم النفس الحديث بـ (نظرية السمات والحالة State–Trait Theory). [٣٨] – فالمقام يُمثل (السمة الشخصية الثابتة–Personality Trait)، بينما الحال يُمثل (الحالة الانفعالية العابرة–Emotional State). وبناءً عليه، يتدخل (كشف المُربي) لتشخيص سؤال المستفتي: هل هذا السلوك نابع من "أزمة انفعالية عابرة" (حال) تتطلب توجيهاً للاحتواء المؤقت؟ أم نابع من "خلل جذري في بنيته السلوكية" (مقام) يتطلب خطة علاجية طويلة الأمد؟ إن هذا التشخيص التفريقي[٣٩] هو الذي يمنع المفتي الصوفي من إعطاء دواء دائم لمرض مؤقت والعكس.

ثانياً: الإرشاد في مرحلة "التلوين" (إدارة عدم الاستقرار الوجداني للمبتدئين)

يُطلق الصوفية مصطلح (التلوين) على السالك المبتدئ أو المتوسط الذي تتقاذفه "الأحوال"؛ فتارة يغمره الفرح بالطاعة والنشاط، وتارة يسحقه الحزن والفتور. وهو ما يُعادل في التحليل النفسي والتربوي حالة (عدم الاستقرار الوجداني Emotional Lability).

في هذه المرحلة الحرجة، لا يترك الشيخ المُربي المسترشد لاختياراته الشخصية، بل يتدخل بـ (توجيهات إرشادية مرنة ومُتدرجة) تُمثل إطاراً حاكماً وسقالات داعمة (Scaffolding) تحميه من الانتكاس. وقد أشار الشيخ الأكبر ابن عربي إلى أن صاحب "التلوين" لا يزال في مقام النقص، ويجب على الشيخ أن يتعهده بالرعاية الدقيقة، فلا يُرخص له في كل ما يشتهي، ولا يتركه عرضة لتقلبات مزاجه (ابن عربي، ١٩٩٩،ج٢،ص٣٨٥)

فالتوجيه هنا يعمل كأداة (ضبط واحتواء)؛ فإذا رأى المُربي من المستفتي ميلاً للانحلال بسبب طغيان "حال الفتور"، وجهه بـ (العزيمة) ليرده إلى جادة السلوك، وإذا رآه يُبالغ في التشديد على نفسه تحت تأثير "حال الحماس المؤقت"، منعه من ذلك وأفتاه بـ (الرخصة) شفقةً عليه من (الاحتراق الروحي[٤٠] واليأس) المستقبلي (الغزالي، ٢٠٠٥،ج٣،ص٦٢).

ثالثاً: الإرشاد في مرحلة "التمكين" (الاستقلال السلوكي والصلابة النفسية)

على النقيض من مرحلة التلوين، يصل السالك المتقدم إلى مرحلة (التمكين)؛ وهي استقرار الباطن ورسوخه في الحق فلا تُزعزعه الطوارئ الانفعالية. وهو ما يُعرف في علم النفس بـ (التنظيم الانفعالي والصلابة النفسية (Emotional Regulation & Resilience[٤١]).

هنا تتغير سياسة المُربي الإرشادية تماماً. فصاحب "التمكين" قد تجاوز مرحلة التأديب الخارجي الهش، وأصبح يمتلك (رقابة باطنية ذاتية). يُقرر الإمام أبو طالب المكي أن العارف المُمَكّن يُعامل بـ "التوسعة والمُسامحة" في الفتوى والتوجيه؛ لأنه لا يُخشى عليه من تتبع الرخص المذموم، فقد صفت نيته واستقامت إرادته (المكي، ٢٠٠٥،٢،ص١١٥). وفي مواضع أخرى، قد يُشدد عليه الشيخ بعزائم أشق ليرتقي به في مقامات الكمال؛ لأن صلابته النفسية تتحمل ما لا يتحمله المبتدئ.

إن اختلاف توجيه السلوك بين السائل المُلَوَّن (المضطرب) والسائل المُمَكَّن (المستقر) ليس تناقضاً في المنهج، بل هو قمة "العدالة التربوية ومراعاة الفروق الفردية". فالمُربي الصوفي يتصرف كالمعلم الخبير الذي يمنح الطالب المبتدئ رعاية واحتواءً صارماً، بينما يمنح السالك المتقدم مهاماً تتناسب مع مستوى نضجه السلوكي والمعرفي.

نافلة القول نرى إنه تُثبت أدبيات التصوف السني أن "التوجيه السلوكي" في ورشة الإرشاد لا يُصاغ بمعزل عن (الخارطة النفسية) للمسترشد. لقد وظّف المُربون مصطلحات (الأحوال والمقامات) كأدوات لتقييم (السمات والانفعالات)، واستخدموا ثنائية (التلوين والتمكين) لتحديد مستوى (النضج الانفعالي) للسائل. وبناءً على هذا الكشف الدقيق، يُفصّل المُربي علاجه؛ فيحتوي المضطرب (الملوّن) بالرخص والتدرج ليحميه من الانتكاس، ويتعامل مع المستقر (الممكّن) بما يتناسب مع رسوخه وصلابته، محققاً بذلك الغاية الأسمى لنظرية (تفريد التوجيه التربوي).

المطلب الثاني هندسة "القبض والبسط"[٤٢] في الإفتاء: الموازنة بين العزائم والرخص كأداة لاحتواء الأزمات النفسية

تتميز النفس البشرية بالديناميكية والتقلب المستمر، فهي لا تستقر على وتيرة وجدانية واحدة. وقد أدرك أئمة التصوف السني هذه الطبيعة البشرية المعقدة، فصاغوا لها أدق نظرية في إدارة الانفعالات وتوجيه السلوك، وهي نظرية (القبض والبسط). وفي ورشة "الإفتاء العرفاني"، لا يتعامل المُربي مع السائلين بقوالب فقهية صماء، بل يوظف الأحكام الشرعية (بين العزيمة المشددة والرخصة الميسرة) كأدوات علاجية لضبط مؤشر الحالة الوجدانية للسائل وإعادته إلى نقطة التوازن .(Emotional Homeostasis) وتتجلى هذه الهندسة السيكولوجية عبر المحاور الآتية:

أولاً: التكييف السيكولوجي لثنائية (القبض والبسط)

يُشكل "القبض والبسط" حالتين وجدانيتين تتعاقبان على قلب السالك. يُعرّف الإمام القشيري (القبض) بأنه حالة من الانكماش الروحي، وضيق الصدر، والشعور بالجفاء والثقل في أداء التكاليف. في حين يُعرّف (البسط) بأنه حالة من الانشراح، والرجاء، والاتساع الروحي الذي يجعل الطاعات خفيفة ومبهجة (القشيري، ٢٠٠١،ص٥٧).

وفي لغة علم النفس العيادي[٤٣] والإرشادي المعاصر، يُعادل (القبض) ما يُعرف بـ (نوبات الاكتئاب التفاعلي، والانقباض الوجداني– Dysphoria & Depressive Episodes)، حيث تُستنزف طاقة الفرد الإرادية. بينما يُعادل (البسط) حالة (الابتهاج الانفعالي والنشوة Emotional Euphoria) والتي قد تدفع الفرد

أحياناً إلى الإفراط أو تجاوز الحدود. إن وعي المُربي الصوفي بهاتين الحالتين هو الذي يُحدد نوع (التدخل السلوكي Behavioral Intervention) الذي سيُقدمه للمستفتي.

ثانياً: المعالجة الإفتائية لحال "القبض" (الرخصة كأداة للاحتواء النفسي ودفع القنوط)

عندما يتقدم المستفتي إلى المفتي وهو يمر بحالة "قبض" شديدة (كأن يشتكي من قسوة قلبه، أو عجزه عن أداء النوافل، أو شعوره باليأس من رحمة الله وانهيار طاقته الروحية)، فإن المفتي الظاهري غير المُتزكي قد يزيده رهقاً بتذكيره بآيات الوعيد وأمره بمضاعفة العبادة بالقوة (العزيمة).

أما المُربي الصوفي (طبيب القلوب)، فإنه يدرك بـ "كشفه" أن طاقة السائل النفسية قد وصلت إلى مرحلة (الاستنزاف الإرادي Ego Depletion) هنا، يتدخل المُربي بـ "هندسة عكسية"؛ فيُفتيه بـ (الرخصة والتخفيف)، ويأمره بالاكتفاء بالفرائض، بل ويُسقط عنه أوراده الشاقة مؤقتاً، ويُحدثه عن سعة رحمة الله.

وقد أشار أبو طالب المكي إلى هذه السياسة الإرشادية الاحتوائية مبيناً أن المربي الحاذق إذا رأى من المريد ضيقاً وقبضاً، ألقى عليه "بساط الرجاء والترخيص" ليرد إليه روحه ويمنعه من الانقطاع الكلي (المكي، ٢٠٠٥،ج١،ص١٥٣). إن الإفتاء بـ "الرخصة" هنا ليس تمييعاً للدين، بل هو (إسعاف أولي سيكولوجي – Psychological First Aid)لمنع المستفتي من الوقوع في الكارثة الأكبر وهي (الانتكاس السلوكي واليأس التامRelapse & Despair).

ثالثاً: المعالجة الإفتائية لحال "البسط" (العزيمة كأداة للضبط السلوكي وكسر الاغترار)

على النقيض تماماً، قد يمر المستفتي بحالة من "البسط" والانشراح المفرط؛ فيجد لذة عظيمة في العبادة، ويشعر بأنه قد جاوز القنطرة وأمن مكر الله، وقد يطلب فتوى في التساهل في بعض المباحات اغتراراً بصفاء باطنه. وهذه الحالة في علم النفس التربوي تمثل خطراً خفياً يتمثل في (الثقة المفرطة وانعدام الحذر – Overconfidence & Impulsivity).

هنا، يُدرك الشيخ المُربي أن (البسط) مزلق خطير قد يُفضي إلى (الشطح) أو تجاوز الحدود الشرعية. فيتدخل المفتي بـ (العزيمة والتشديد الفقهي) كأداة لـ "الفرملة السلوكية". يحذر الشيخ الأكبر محيي الدين بن

عربي من مكر حالة البسط، مقرراً أن العارفين يخافون من البسط أكثر من القبض؛ لأن البسط يورث سوء الأدب وتجاوز حدود الشريعة إذا لم يُلجم، ولذا يجب على الشيخ أن يُلزم المريد المبسوط بـ (آداب العزائم والوقوف عند الحدود) ليرده إلى مقام الهيبة والاعتدال (ابن عربي، ١٩٩٩،ج٢،ص١٣٢).

فالتشديد هنا (وإصدار فتاوى العزيمة) يعمل كـ (مُثبِّت للمزاج– Mood Stabilizer) بلغة الطب النفسي، وكـ (عقاب إيجابي للردع) بلغة المدرسة السلوكية؛ لكبح جماح المستفتي، وصيانته من الانفلات السلوكي الذي قد يُدمره أخلاقياً واجتماعياً.

من مجمل ما تقدم تجلى لنا بوضوح أن مدرسة التصوف السني لا تتعامل مع "العزيمة والرخصة" [٤٤]كأحكام قانونية جامدة تُعطى للناس اعتباطاً، بل كأدوات توازن سيكولوجية (Psychological Balancing Tools). إن المُربي الذي أنار الله بصيرته، يمتلك القدرة على قياس مؤشر (القبض والبسط) لدى المسترشد؛ فيُعالج انكماش "القبض" بالرخص والرجاء لإنعاشه واحتوائه، ويُعالج طغيان "البسط" بالعزائم والخوف لضبطه وحمايته من الاغترار. وهذا التدخل الإفتائي العبقري يُثبت أن أئمة العرفان قد أسسوا لمنهج إرشادي متكامل يهدف إلى تحقيق (الاستتباب الوجداني[٤٥] والروحي) للإنسان.

المطلب الثالث المعالجة بـ "الصدمة السلوكية"[٤٦]: كسر (النرجسية الروحية) عند المتنسكين

تُمثل الأمراض الباطنية الخفية التحدي الأكبر في ميدان التوجيه السلوكي والإرشاد الديني. ففي حين تنجح الفتاوى الظاهرية في ضبط حركة الجوارح، تقف عاجزة أمام آفة تتولد من رَحِم الطاعة نفسها، وهي ما يُعرف في الأدبيات السيكولوجية بـ (النرجسية الروحية – Spiritual Narcissism)، وعند أئمة التصوف بـ (العُجب ورؤية العمل). وهنا يبرز دور المُربي العارف الذي يمتلك شجاعة استخدام التدخلات الإرشادية غير التقليدية، والتي قد تصل إلى حد إيقاع (صدمة سلوكية ومعرفية–Cognitive & Behavioral Shock). للمسترشد لإنقاذه من تضخم ذاته. وتتمثل هذه المعالجة العرفانية في المحاور الآتية:

أولاً: الكشف عن فخ "الأنا" (التشخيص العيادي لـ "الغرور الروحي)

ينظر المُربي الصوفي إلى المستفتي المتنسك بعين الفراسة، فإذا وجده يُكثر من السؤال عن دقائق النوافل والفضائل، وتظهر على ملامحه أو فلتات لسانه علامات الاستعلاء على العصاة أو الاغترار بكثرة عمله، أدرك المُربي أن هذا السائل قد وقع في فخ (تضخم الأنا.–Ego Inflation).

وقد أبدع الإمام ابن عطاء الله السكندري في تفكيك هذه العقدة النفسية حين صاغ قاعدته الذهبية: "رُبَّ معصيةٍ أورثتْ ذُلاً وانكساراً، خيرٌ من طاعةٍ أورثتْ عِزّاً واستكباراً" (ابن عطاء الله، ٢٠٠٨،ص٤٥). فالمُربي هنا لا يقيس صلاح السائل بـ "كَمية العبادة"، بل بـ "جودة الافتقار". فإذا تحولت العبادة إلى وقود يُغذي (النرجسية) والكبر الخفي، أصبحت عند العارف أشد خطراً من المعصية الظاهرة؛ لأن المعصية تُعالج بالتوبة، أما الكبر المتستر بالدين فيستعصي على التشخيص العادي ويحجب العبد عن ربه (المحاسبي، ٢٠٠٠،ص١٠٢).

ثانياً: التوجيه بـ "الترك" وكسر المألوف (العلاج بالتناقض –Paradoxical Intervention**):**

عندما يتأكد المُربي من سيطرة "العُجب" على المستفتي، فإنه يعمد إلى تقنية إرشادية صادمة ومخالفة للمتوقع. فبدلاً من أن يُشجعه على الاستزادة من النوافل (كما يفعل المفتي الظاهري)، يُصدر له توجيهاً صارماً بـ (ترك هذه النوافل) مؤقتاً، والاشتغال بأعمال قد تبدو في ظاهرها أقل شأناً لكنها محطمة للكبر.

هذا التكتيك الصوفي يُعادل في علم النفس العيادي المعاصر تقنية (القصد المتناقض[٤٧] أو العلاج العكسي Paradoxical Intention). التي ابتكرها علماء العلاج المعرفي. حيث يقوم الإمام الغزالي بتأصيل هذا العلاج الصادم، مبيناً أن المتنسك إذا دخله الكبر بعلمه أو عبادته، فدواؤه أن يُلزمه الشيخ بـ (أعمال الخدمة والمهانة)؛ كأن يأمره بتنظيف الحمامات، أو كنس الأسواق، أو حمل الحطب على ظهره في الأماكن التي يُعرف فيها بمكانته، حتى يسقط جاهه من قلبه وتتحطم كبرياؤه (الغزالي،٢٠٠٥،ج٣،ص٣٢١).

إن هذه (الفتوى العلاجية) لا تهدف إلى الإذلال العبثي، بل هي (علاج بالتعرض Exposure – Therapy).تُجبر المستفتي على مواجهة أعمق مخاوفه (وهي سقوط صورته الاجتماعية المزيفة)، ليعود إلى حقيقة عبوديته.

ثالثاً: تفكيك "الأصنام الباطنية" وتجريد القصد (الهدف التربوي للصدمة)

لا يقف تدخل المُربي العارف عند إحداث الصدمة السلوكية، بل يتجاوزها إلى إعادة بناء (المنظومة المعرفية والوجدانية) للمسترشد. فالصدمة تعمل كـ (مُزيل للتحسس Desensitization) تجاه آراء الناس، وتُحرر المستفتي من عبودية "السمعة الدينية.(Spiritual Reputation).

وبمجرد أن يرى الشيخ أن (الأنا) قد انكسرت، وأن المسترشد قد تخلص من نرجسيته وعاد ليرى نفسه مفتقراً محتاجاً، يعود فيأذن له في أوراده ونوافله مرة أخرى، ولكن هذه المرة بقلبٍ خالٍ من رؤية العمل. وهذا هو جوهر (تعديل السلوك الباطني) الذي يُميز ورشة التصوف السني؛ حيث لا تُطلب الطاعات لذاتها كمقادير كمية تُغذي الغرور، بل تُطلب بوصفها وسائل لتحقيق (التجرد المطلق) لله تعالى، وحماية النفس من التحول إلى "صنم باطني" يُعبد من دون الله.

خلاصة القول أن التحليلات السيكولوجية والتربوية قد أثبتت في هذا المبحث أن "الورشة الصوفية" تُمثل أرقى أشكال (العيادات الإرشادية) في التراث الإسلامي. إن المُربي العارف لا يقدم فتاوى أو توجيهات معلبة، بل يوظف مَلَكَة (الفراسة والكشف) لإجراء تشخيص تفريقي دقيق؛ فيميز بين "أحوال" السائل المتقلبة و"مقاماته" المستقرة. وبناءً على ذلك، يُدير المُربي بوصلة التوجيه بعبقرية نادرة؛ فيُسعف المنقبض المكتئب بـ "الرخصة والرجاء" احتواءً له، ويقمع الاغترار والبسط المفرط بـ "العزائم والتشديد" ضبطاً له. وعندما يكتشف المُربي آفة (النرجسية الروحية) وتضخم الأنا لدى المتنسكين، لا يتردد في استخدام (الصدمة السلوكية) والعلاج بالترك لكسر غرورهم. إن هذه الآليات الإرشادية الفذة تُبرهن على أن المدرسة الصوفية السنية قد استوعبت أعمق تعقيدات النفس البشرية، وأسست لنظريات في تعديل السلوك تتفوق في دقتها ومآلاتها على أحدث المدارس النفسية المعاصرة.

المبحث الثالث استنطاق التراث الصوفي: دراسات حالة (عيادية وتربوية) في فقه الباطن

إن القيمة الحقيقية لأي تنظير إبستمولوجي أو سيكولوجي تكمن في قدرته على معالجة النوازل الواقعية وفك الاشتباك بين تعقيدات النفس البشرية. وبعد أن أرسى البحث دعائم "علم المكاشفة" وآلياته التشغيلية داخل الورشة الصوفية في المبحثين السابقين، ينتقل في هذا المبحث الأخير إلى الفضاء التطبيقي المحض. ويهدف هذا المبحث إلى استنطاق أمهات المدونات العرفانية (كالرسالة القشيرية، وإحياء علوم الدين، والإبريز)؛ للوقوف

على قصص ومواقف أئمة التصوف السني، وإعادة قراءتها بوصفها (دراسات حالة إرشادية Case Studies) تُوثق كيف وظّف العارفون بصيرتهم النورانية في تشخيص الادعاء الزائف، وعلاج الوسواس القهري، وتقديم الرعاية الوقائية الاستباقية للمسترشدين.

المطلب الأول سرديات "الأحوال الصوفية": قصص تطبيقية في التشخيص وتعرية الادعاء الزائف (التنافر المعرفي[٤٨]).

تزخر المدونات الصوفية بمواقف وقصص تُروى عادة في سياق "الكرامات"، غير أن القراءة السيكولوجية والتربوية الفاحصة لهذه السرديات تكشف عن بُعدٍ إرشادي وعيادي بالغ التطور. فالشيخ المُربي لا يستخدم "كشفه" للتباهي باختراق الغيب، بل يوظفه كأداة لـ (التشخيص التفريقي)؛ لفضح التناقض الداخلي للمستفتي، وتعرية دفاعاته النفسية، وإيقاع صدمة إدراكية تُعيده إلى صوابه. وتتجلى هذه العبقرية التطبيقية في النماذج الآتية:

أولاً: فراسة الإمام الجنيد في اختراق "الدفاعات النفسية" وتعرية الهوية الخفية

تُعد قصة الإمام الجنيد البغدادي (سيد الطائفة) من أروع التطبيقات لاختراق ما يُعرف في علم النفس بـ (الدفاعات النفسية– Psychological Defenses) و(الأقنعة الاجتماعيةSocial Personas)

فقد روى الإمام القشيري أن شاباً مسيحياً تنكر في زي المسلمين، ودخل مجلس الجنيد ليختبره، فسأله: يا أبا القاسم، ما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : "اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله"؟ فأطرق الجنيد رأسه، ثم رفع طَرْفَهُ ونظر إليه بنور الكشف والفراسة، وقال له بصدمة تربوية مباشرة: "أسلِمْ، فقد حان وقت إسلامك!". فانهارت مقاومات الشاب، وأسلم في الحال (القشيري،٢٠٠١،ص٢٣٨).

لو تعامل الجنيد مع "ظاهر السؤال" لرد عليه بشرح حديثي ولغوي تقليدي كما يفعل فقهاء الرسوم، لكن (كشفه الباطني– Clinical Intuition) مكّنه من قراءة (الهوية الحقيقية) للسائل. إن هذا "الاختراق التربوي" أحدث لدى الشاب ما يُعرف في علم النفس المعرفي بـ (الصدمة الإدراكية–Cognitive Shock)؛ فقد نُقل السائل فجأة من دائرة الجدل الفكري والمراوغة إلى دائرة الانكشاف التام واليقين. إن الكشف الصوفي هنا عمل كأداة حاسمة لاختصار مسافات الهداية وكسر حاجز الإنكار.(Denial Mechanism) .

ثانياً: فراسة أبي يزيد البسطامي في تشخيص "النرجسية الروحية" والعلاج بالصدمة

غالباً ما يأتي السائل يطلب توجيهاً لزيادة العبادات الظاهرة، فيُفتيه المفتي التقليدي بالاستحباب. أما المفتي الصوفي، فإنه يعرض السائل على (ميزان الكشف الباطني) ليكتشف ما وراء هذا الطلب. وتُعد قصة العارف بالله (أبي يزيد البسطامي) من أدق التطبيقات الإرشادية في فضح (التنافر المعرفي Cognitive – Dissonance).

فقد جاءه رجل يشتكي انعدام الأثر الروحي قائلاً: "يا أبا يزيد، إني أصوم النهار منذ ثلاثين سنة، وأقوم الليل، ولا أجد في قلبي شيئاً من هذا النور!". فأدرك أبو يزيد بكشفه أن المشكلة ليست في (كَمِّ العبادة) بل في (تضخم الأنا والغرور). فأفتاه بفتوى علاجية صادمة قائلاً: "لو صليت وصمت ثلاثمائة سنة لم تجد ذرة من هذا، لأنك محجوبٌ بنفسك". فلما سأله الرجل عن العلاج، أمره أبو يزيد أن يحلق لحيته، ويلبس عباءة رثة، ويُعلق في عنقه مخلاة من الجوز، ويجلس في السوق يوزع الجوز على الصبيان ليُسقط مكانته من عيون الناس! فقال الرجل: سبحان الله! أتقول لي هذا؟ فقال أبو يزيد: "قولك سبحان الله هنا شِرك! لأنك عظّمت به نفسك لا ربك" (الغزالي، ٢٠٠٥،ج٣،ص٣٢١).

هذا التوجيه الصوفي الصادم ليس حكماً فقهياً عاماً، بل هو (وصفة علاجية خاصة) مبنية على الكشف الباطني؛ حيث أدرك الشيخ أن السائل مصاب بـ (الكبر الروحي والنرجسيةSpiritual Narcissism –)، فاستخدم هذه الفتوى كتقنية لـ (تعديل السلوك وكسر الأنا Ego Deflation) عبر ما يُعرف اليوم بـ (العلاج بالتعرض Exposure Therapy) لقد كشفت فراسة البسطامي أن عبادة ثلاثين سنة كانت تُغذي (وجاهة السائل الاجتماعية) ولم تكن لله، فكان العلاج الوحيد هو تدمير هذه الوجاهة المزيفة بالكلية ليعود إلى حقيقة الافتقار.

ثالثاً: "كشف الخواطر" كأداة للاحتواء النفسي وبناء الثقة الإرشادية (مدرسة التستري[٤٩])

من أعظم تجليات "الفراسة" في التراث العرفاني ما يُعرف بـ "كشف الخواطر" (التخاطر الوجداني)؛ وهو قدرة المُربي على إجابة السائل عن أفكاره وشكوكه قبل أن ينطق بها.

ومن القصص الموثقة في ذلك، ما رُوي عن الإمام سهل بن عبد الله التستري حين جاءه شاب يُضمر في نفسه شكاً وسؤالاً وامتحاناً للشيخ، ولم يتفوه به خجلاً وتردداً. فنظر إليه سهل بكشفه، وقال له ابتداءً: "يا بني، إن الذي تُضمره في نفسك من الشك، دواؤه كذا وكذا.."، فبُهت الشاب وانهارت دفاعاته النفسية، وتاب على يديه (القشيري، ٢٠٠١،ص٢٤٠)

يعمل هذا "الكشف الصوفي الاستباقي" في ميدان التربية وعلم النفس كأداة سحرية لبناء أعلى درجات (الألفة والثقة المطلقة Rapport) بين المُربي والمسترشد. فعندما يشعر المستفتي أن المُربي قد اطلع بنور الله على خفايا صدره واحتوى شكه قبل أن يبوح به، يحدث له ما يُسمى بـ (التنفيس الانفعالي Catharsis[٥٠]). فيحصل له استسلام علاجي يجعله أكثر تقبلاً للنصيحة، وتتحول التوجيهات من مجرد معلومات جافة إلى بلسم يمسح على الجراح النفسية.

خلاصة القول نرى أن هذه السرديات العرفانية تُبرهن على أن قصص "الكشف والفراسة" في المدونات الصوفية المعتمدة ليست خيالات تُسرد للتعظيم، بل هي (محاضر جلسات إرشادية وعيادية) في غاية الدقة والعمق. لقد وظّف أئمة التصوف (كالجنيد والبسطامي والتستري) نور بصيرتهم لقراءة التشوهات النفسية (كالأقنعة الزائفة، والكبر، والشك) لدى المستفتين، وصاغوا فتاواهم وتوجيهاتهم كـ (تدخلات سلوكية تصادمية واحتوائية) تُعالج أمراض الباطن المستعصية، مما يؤكد أن توجيه السلوك في مدرسة التصوف السني هو عملية "هندسة روحية ونفسية" تنفذ من ظاهر القول إلى حقيقة القصد.

رابعاً: التدليل على "الكشف" والجمع بين "الظاهر" و"الحقيقة" كنموذج للكمال الإرشادي (الجيلاني أنموذجاً)

يُقرر أئمة التزكية أن (المقام الأكمل) للمربي لا يكمن في الوقوف عند ظاهر النصوص فحسب، ولا في ادعاء الباطن بمعزل عن الشرع، بل في "الجمع بين حُكم الظاهر وحقيقة الكشف". وللتدليل العيادي على فاعلية هذا الكشف وتكامله، يبرز الموقف الشهير للإمام عبد القادر الجيلاني، حين سأله رجل مخمور ثلاث مرات: "يا عبد القادر، هل الله قادر؟" فأجابه الشيخ في الأولى والثانية بالإيجاب، لكنه انهار باكياً ساجداً في الثالثة وأمر بإكرام الرجل لاحتوائه (التادفي، ١٩٩٣، ص. ٥٥).

يُبرهن هذا الموقف التطبيقي على أن "الكشف" أداة للوصول إلى (الحقيقة). ففي عالم (الظاهر)، طابق الشيخ العقيدة وأجاب السائل بما يقتضيه الشرع. ولكن بنور (الكشف)، نفذ إلى (الحقيقة) وقرأ الخواطر اللاشعورية للسائل؛ فأدرك أن المخمور يسأل بلسان الحال: "هل يقدر أن يتوب عليّ؟ وهل يقدر أن يرفعني لمقامك ويسلبك إياه؟". إن هذا الجمع العبقري بين إقرار (الظاهر) واستبصار (حقيقة الكشف) –المتمثلة في الخوف من مكر الله وتقلب الخواتيم– يُمثل (الكمال الإرشادي)؛ إذ حمى المفتي من (الاستعلاء الأخلاقي)، ومكّنه من ممارسة (تعاطف إكلينيكي) لاحتواء المذنب بدلاً من تقريعه (الرخاوي، ٢٠٠٠، ص. ٨٥).

المطلب الثاني العيادة الصوفية لمرضى "الوسواس القهري":

العلاج بـ (إسقاط التدبير[٥١] والتسليم) بدلاً من التكرار المَرَضي

تُمثل العبادات في المنظور الإسلامي المحضن التربوي الأول لتحقيق الطمأنينة والتوازن النفسي. غير أن هذه الشعائر قد تتحول لدى بعض الأفراد إلى ساحة للصراع الداخلي والعذاب النفسي المُمضّ، وذلك عند الإصابة بما يُعرف في علم النفس العيادي بـ (اضطراب الوسواس القهري Obsessive–Compulsive – Disorder / OCD) في جانبه الديني. وفي هذا السياق المعقد، تبرز الخطورة البالغة للفتوى الظاهرية المجردة؛ إذ إن أمر المريض بـ "الاحتياط" وإعادة العبادة بناءً على الشك، يؤدي إلى تدميره نفسياً. وهنا يتدخل المُربي الصوفي بـ "كشفه الإرشادي" ليُقدم معالجة سيكولوجية وتربوية دقيقة تعتمد على إحياء معاني (التسليم)، وذلك عبر المحاور الآتية:

أولاً: الكشف العرفاني لحقيقة الوسواس (بين الورع الموهوم والاعتلال النفسي)

تبدأ المعالجة الصوفية لنازلة الوسواس بـ "التشخيص التفريقي .(Differential Diagnosis) "فالمفتي الظاهري قد ينخدع بظاهر حال المستفتي الذي يُعيد غسل أعضائه مراراً أو يُكرر تكبيرة الإحرام، فيظن أن هذا السلوك نابع من (الورع وشدة التقوى)، فيُفتيه بالاستمرار في الاحتياط.

أما المُربي العارف، فإنه يقرأ بفراسته أن هذا السلوك ليس ورعاً، بل هو (انحراف إدراكي Cognitive – Distortion) وشك مَرَضي ناتج عن تضخم "الأنا" ومحاولتها السيطرة المطلقة على صحة العمل. لقد حرر أئمة التزكية هذا التشخيص السيكولوجي الدقيق؛ حيث بيّن الإمام الحارث المحاسبي أن الموسوس مخدوعٌ

بمكائد نفسه، يظن أنه يُحسّن طاعته، وهو في الحقيقة يطعن في سعة رحمة الله، ويُرهق جوارحه استجابةً لوهمٍ داخلي ولجهلٍ بالسنة (المحاسبي، ٢٠٠٠،ص١٢٠). إن هذا الفرز المنهجي بين "الاحتياط الديني السليم" و"الاحتياط المرضي القهري" هو الخطوة الأولى التي تُتيح للمُربي الانتقال من مربع (الفتوى الفقهية الجامدة) إلى مربع (العلاج النفسي والروحي).

ثانياً: العلاج بـ "إسقاط التدبير" (التنازل عن وهم السيطرة والكمالية المفرطة)

يكمن الجذر النفسي لمرض الوسواس القهري في رغبة المريض في تحقيق (الكمال المطلق– Perfectionism)، والسيطرة التامة على تفاصيل طهارته وصلاته، لخوفه العميق من رفض الله لعمله. وهنا تتدخل المدرسة الصوفية بأعظم أدواتها العلاجية، وهي نظرية (إسقاط التدبير)

يُقرر الإمام ابن عطاء الله السكندري في حِكمه أصل هذا العلاج قائلاً: "أَرِحْ نَفْسَكَ مِنَ التَّدْبِيرِ، فَمَا قَامَ بِهِ غَيْرُكَ عَنْكَ لا تَقُمْ بِهِ لِنَفْسِكَ" (ابن عطاء الله، ٢٠٠٨،ص٢٢). يوظف المُربي الصوفي هذه الحكمة كـ (تدخل معرفيCognitive Intervention)؛ حيث يُفتي المريض بضرورة التنازل عن محاولة إخراج العمل في صورة مادية خالية من العيوب، ويأمره بـ (التسليم) التام لمراد الله وفضله. يُفهمه المُربي أن الله ينظر إلى "افتقاره وانكساره" (وهو عمل القلب) وليس إلى "عدد غسلاته" (وهو عمل الجوارح). هذا النقل الجذري لمركز الاهتمام من (الظاهر المادي) إلى (الباطن الروحي) يُحرر المريض من قيد "التدبير المَرَضي" ويُعيد إليه سكينته.

ثالثاً: التدخل الإرشادي بفتوى "الإعراض المطلق" (المكافئ العرفاني)

عندما يتأكد المُربي من وقوع المستفتي في فخ الوسواس، فإنه يُعطل فوراً العمل بقواعد "اليقين والاحتياط" في حقه، ويُصدر له فتوى صارمة ومُلزمة بـ (العزيمة على ترك الإعادة والإعراض التام). هذا التدخل الإفتائي الاستثنائي يُعد المكافئ الإسلامي الدقيق لتقنية (التعرض ومنع الاستجابة[٥٢] Exposure and – Response Prevention / ERP) المستخدمة في العلاج المعرفي السلوكي المعاصر.

فالمريض يشعر بقلق شديد (مثير) يدفعه لإعادة الوضوء ليحقق طمأنينة مؤقتة (استجابة قهرية). المفتي الصوفي هنا يمنعه من هذه الاستجابة ويأمره قائلاً: "لا تُعد وضوءك ولا صلاتك مهما بلغ بك الشك، وصلاتك

صحيحة". وقد أكد الإمام الغزالي هذا المعنى السلوكي الصارم مبيناً أن دواء الوسوسة هو تكذيبها والإعراض عنها والمضي في العمل وإن استيقن الخطأ، وأن تكرار العبادة طاعةٌ للشيطان لا للرحمن، ومآله إمراض القلب واستنزاف الروح (الغزالي، ٢٠٠٥،ج١،ص١٤٥).

إن هذه الفتوى "التصادمية" مع وهم المريض تُجبره على تحمل (القلق المؤقت) المرتبط بالشك، وتمنعه من الاستجابة القهرية (إعادة الغسل)، مما يؤدي تدريجياً إلى ما يُعرف في علم النفس بـ (إطفاء السلوك المرضي Behavior Extinction) وبذلك يُنقذ المُربي مريضه من مآلٍ كارثي وهو (الاحتراق الروحي – Spiritual Burnout) الذي قد يدفعه لترك العبادة بالكلية هرباً من العذاب النفسي.

من خلال ما تقدم نرى أن معالجة نازلة "الوسواس القهري" في الورشة الصوفية تُثبت أن الفتوى الإرشادية ليست مجرد صناعة نصية جافة، بل هي (إدارة للأزمات النفسية). لقد عمل المُربي العارف كـ (معالج سلوكي ومعرفي) متمرس؛ فشخّص الخلل الإدراكي القائم على وهم الكمال (الورع الموهوم)، واستخدم حكمة (إسقاط التدبير) كعلاج معرفي لتحرير المستفتي من وهم السيطرة. ثم طبّق فتوى (الإعراض المطلق ومنع الإعادة) كبرنامج علاج سلوكي (ERP) لكسر الحلقة القهرية. وبذلك يُحقق المُربي الغاية التربوية العظمى في حفظ استقرار الإنسان وحمايته من الانتكاس العقلي والديني، مؤكداً أن الفقه متى ما تجرد من "نور الباطن" تحول إلى عبءٍ يُثقل كاهل الأرواح بدلاً من تحريرها.

المطلب الثالث التشخيص الاستباقي[٥٣] وقراءة "اللوح الباطني":

فراسة الشيخ عبد العزيز الدباغ (في الإبريز) نموذجاً

تُمثل (الرعاية الوقائية) أرقى درجات التدخل الإرشادي والتربوي؛ إذ إن منع وقوع السلوك المنحرف أيسر وأجدى من علاجه بعد تجذره. وفي حين تعتمد المدارس النفسية المعاصرة على (المقاييس التنبؤية) لاكتشاف بوادر الانحراف، تنفرد المدرسة الصوفية السنية بأداة تشخيصية باطنية فائقة الدقة تُعرف بـ (قراءة اللوح الباطني[٥٤]) أو (إبصار ظُلمة المعاصي). ويُعد كتاب (الإبريز) الذي دوّن فيه أحمد بن المبارك اللمطي[٥٥] علوم شيخه العارف بالله عبد العزيز الدباغ، من أعمق المدونات التي فككت هذه الظاهرة. فالعارف لا يرى

"جسد" المسترشد، بل يرى "طاقته الروحية"؛ ليتدخل بـ (توجيه استباقي–Proactive Guidance) يمنعه من السقوط. وتتضح معالم هذا المنهج العيادي في المحاور الآتية:

أولاً: "التشخيص الطاقي" للانحراف السلوكي (إبصار الظلمة والنور)

يُؤسس الشيخ عبد العزيز الدباغ لنظرية سيكولوجية وروحية مذهلة، مفادها أن كل فكرة (خاطر) أو سلوك يصدر عن الإنسان يترك أثراً طاقياً (Energetic Imprint) في باطنه؛ فالطاعة تُنتج "نوراً"، والمعصية تُنتج "ظلمة" كثيفة تكسو قلب صاحبها ووجهه.

يُقرر الدباغ أن العارف الذي انفتح كشفه، يمتلك (رؤية باطنية (Inner Vision – تُمكّنه من إبصار هذه الظُلَم بوضوح تام، حتى إنه ليرى ظلمة "الكذب" تختلف عن ظلمة "الزنا" أو "أكل الحرام" بمجرد النظر إلى السائل (ابن المبارك، ٢٠٠٢،ص١٤٢). وفي التحليل النفسي الإرشادي، يُعادل هذا الكشف ما يُعرف بـ (قراءة التعبيرات الدقيقة واللغة غير اللفظية العميقة Micro-expressions & Deep Non-verbal Cues –). فالمُربي الصوفي لا ينتظر اعتراف المستفتي بذنبه، بل يقرأ (ملفه السلوكي) المطبوع على روحه بمجرد جلوسه أمامه، مما يُسقط جميع دفاعات الإنكار (Denial Mechanism) لدى المسترشد.

ثالثاً: التدخل الإرشادي الاستباقي (الوقاية قبل الانتكاس)

لا يقتصر "الكشف الدباغي" على رصد المعاصي السابقة، بل يمتد إلى استشراف (النوايا والخواطر) التي لم تُترجم بعد إلى أفعال. فالخاطر السيئ يُحدث تشويشاً في (الهالة الروحية) للمريد، يلحظه الشيخ العارف فوراً.

ويحفل كتاب (الإبريز) بمواقف تطبيقية مذهلة؛ حيث يروي ابن المبارك أن الشيخ الدباغ كان يلتفت فجأة إلى أحد مريديه في المجلس، ويزجره عن فكرة خطرت في باله للتو، أو يُحذره من طريقٍ سيسلكه غداً لأنه سيعرضه لفتنة (ابن المبارك، ٢٠٠٢،ص١٨٥). هذا التدخل التربوي السريع يُمثل جوهر ما يُعرف اليوم بـ (الإرشاد الوقائي المبكر Early Preventive Counseling) فالشيخ يتدخل لـ (إجهاض الفكرة المنحرفة) في مهدها المعرفي (Cognitive Stage) قبل أن تتحول إلى (استجابة سلوكية) مدمرة. إن هذه الفراسة الوقائية توفر للمسترشد (حماية سيكولوجية) وتُشعره بوجود رقابة أبوية حانية تعصمه من الانزلاق.

ثالثاً: أخلاقيات الكشف (الستر، الاحتواء، والتحالف العلاجي[٥٦])

لعل من أهم الإشكاليات التي يطرحها العقل الأكاديمي: إذا كان الشيخ العارف يرى فضائح الناس ومعاصيهم، ألا يؤدي ذلك إلى هتك الستر وتدمير العلاقة الإرشادية؟

هنا يبرز الضابط الأخلاقي الصارم في ورشة التصوف؛ فـ "الكشف" ليس أداة للتشهير، بل هو أداة لـ (التصحيح الرحيم). يُقرر الدباغ أن العارف الحقيقي هو الذي يتخلق بـ (صفة الستار)، فإذا رأى ظلمة المعصية في المستفتي، لم يفضحه علانية، بل وجّهه بـ (إرشاد غير مباشر Indirect Counseling)أو ضرب له أمثالاً تُلامس جرحه دون أن تخدش حياءه، مما يدفعه للتوبة الباطنية (ابن المبارك، ٢٠٠٢،ص٢٠١)

إن هذا الكتمان والرحمة يولد لدى المسترشد ما يُسمى في علم النفس بـ (القبول الإيجابي غير المشروط –[٥٧] Unconditional Positive Regard) ندما يدرك المريد أن شيخه يعلم أقبح أسراره ورغم ذلك يحتويه ولا يفضحه، ينهار لديه حاجز الخوف، وتتأسس بينهما أعلى درجات (التحالف العلاجي Therapeutic – Alliance). فالكشف العرفاني يُدار بـ "حكمة بالغة" توازن بين دقة التشخيص ورحمة الاحتواء، مما يجعل المُربي الصوفي هو الملاذ الآمن للنفوس الحائرة.

المطلب الرابع: جدلية "الترقي الباطني" و"المسؤولية الإفتائية": التكييف السيكولوجي لـ (الإيثار الروحي) في المدرسة العراقية المعاصرة (الشيخ قاسم القيسي أنموذجاً)

لا تقتصر فاعلية المقاربة العرفانية على توجيه "المستفتين" وتعديل سلوكهم فحسب، بل تمتد أفقياً وعمودياً لتضبط الإيقاع النفسي والروحي لـ "المفتي" (الشيخ المربي) نفسه. فاستقراء التراث الصوفي يثبت أن العملية الإفتائية ومخالطة الجماهير عملية شاقة تستنزف طاقة المفتي، مما يولد لديه أحياناً صراعاً داخلياً للهروب من ضجيج الخلق إلى أنس الخالق. وفي هذا المطلب، ننتقل من التنظير الكلاسيكي لنستنطق (دراسة حالة تطبيقية معاصرة) من التراث الإفتائي العراقي؛ لنبرز كيف تتدخل العناية الباطنية (عبر الرؤى الصادقة) لإعادة توجيه البوصلة السلوكية للمفتي، وحسم هذا الصراع الوجداني.

أولاً: التوثيق السردي والقيمة الإبستمولوجية لـ (الرؤيا التوجيهية)

تمثل شخصية مفتي الديار العراقية الأسبق، العلامة الشيخ قاسم القيسي (ت ١٩٥٥م)[٥٨] ، امتداداً حياً لمدرسة "الفقه الممزوج بالتصوف". وقد نُقل في المرويات الموثقة تسجيلاً عن تلميذه الحاج محمود مهاوش الكبيسي (ت ١٩٨٣م)[٥٩] حادثة روحية في غاية الدلالة؛ حيث حكى المفتي القيسي لتلميذه خلاصة رؤيا باطنية عميقة قائلاً: "يا حاج محمود.. رأيت في الرؤيا الأبدال[٦٠]، وقالوا لي: لسنا نبخل عليك بالولاية.. ولكن.. نخاف أن تزهد بالإفتاء.. ومن لبغداد سواك."!!

في ميزان التحليل النفسي والتربوي، لا تُعد هذه الحادثة منامة سردية للاستئناس، بل هي ما يُعرف بـ (التوجيه الإرشادي الأعلىDivine Directive)؛ حيث تعمل الرؤيا الصادقة كأداة لحسم (التنافر الوجداني – Cognitive Dissonance) الذي كان يعاني منه المفتي بين طموحه في التفرغ للعبادة، وبين عبء الوظيفة المجتمعية.

ثانياً: تفكيك الصراع النفسي (بين فتنة "السُّكر الروحي" و"الاحتراق الإفتائي)

تكشف هذه الحادثة عن صراع نفسي دقيق كان يعتمل في باطن المفتي، وهو ما يُعرف في علم النفس بـ (صراع الأدوار– Role Conflict) فالمفتي الذي يواجه يومياً أزمات المستفتين، وانحرافاتهم، وعقدهم النفسية، يكون عرضة لما يُسمى في علم النفس الإرشادي بـ (الإرهاق التعاطفي (Compassion Fatigue –) و(الاحتراق النفسي – Burnout).

في مقابل هذا الإرهاق الدنيوي، يُفتح للمربي باب التجليات في خلواته، فيجد فيها (نشوة وجدانية Spiritual – Euphoriaولذة خالصة تجعله يميل فطرياً إلى الانعزال. وهنا يكمن الفخ السيكولوجي الذي يُسميه علماء النفس بـ (التخطي الروحي[٦١] –[Spiritual Bypassing)؛ حيث يتذرع الفرد بالرغبة في الكمال الروحي والولاية للهروب من استحقاقات الواقع المعقد. لقد جاء هذا الكشف الصوفي ليعالج حالة "الزهد" لدى المفتي؛ مبيناً أن الزهد هنا قد يتحول من فضيلة إلى عائق سلبي (انسحاب سلوكيBehavioral Withdrawal –) لأنه زهدٌ في خدمة أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

ثالثاً: العلاج بـ "إعادة التأطير المعرفي" (تطبيق لقواعد ابن عطاء الله السكندري)

العبقرية الإرشادية في هذه الرؤيا تكمن في أنها أحدثت للمفتي ما يُعرف بـ (إعادة التأطير المعرفي– Cognitive Reframing). فالأبدال لم ينفوا عنه أهلية الولاية (لسنا نبخل عليك بالولاية)، ولكنهم اشترطوا بقاءه في منصب "الإفتاء". هذا التوجيه يحمل تغييراً جذرياً في الإدراك؛ فهو يُفهم المفتي أن الولاية الحقيقية لا تكمن في الهروب إلى صوامع العبادة (مقام الفناء)، بل في (البقاء بعد الفناء)؛ أي النزول من سماء التجليات إلى أرض المعاناة لإنقاذ المجتمع.

وهذا المعنى الدقيق هو التطبيق العملي الأجلّ للقاعدة السيكولوجية والتربوية التي قعدها الإمام ابن عطاء الله السكندري في حكمه حين قال: "إِرادَتُكَ التَّجْريدَ مَعَ إِقامَةِ اللهِ إِيّاكَ في الأَسْبابِ مِنَ الشَّهْوَةِ الخَفِيَّةِ" (ابن عطاء الله، ٢٠٠٨،ص٢٠). فالمفتي القيسي أقامه الله في (سبب الإفتاء والنفع المتعدي)، فكانت رغبته الباطنية في (التجريد والخلوة) نوعاً من الشهوة الروحية الخفية التي تستوجب العلاج. فجاءت الرؤيا لترده إلى مقام (التسليم)؛ ليضحي براحته النفسية ويتنازل عن جزء من "لذته الروحية الخاصة"، محققاً بذلك أسمى درجات (الإيثار الروحي– Spiritual Altruism)

رابعاً: البعد الاجتماعي والتربوي (المفتي كـ "شبكة أمان نفسي" للمجتمع

تتوجت الرؤيا بعبارة مفصلية بالغة التأثير: (ومن لبغداد سواك!!). هذه الجملة تضعنا أمام حقيقة دور المفتي العارف في علم النفس الاجتماعي. فـ "بغداد" هنا تمثل "المجتمع" المليء بالنوازل والأزمات. والمفتي المتزكي يمثل (شبكة الأمان النفسي Psychological Safety Net) والملاذ الآمن لهذا المجتمع.

فانسحاب العالم الرباني وزهده في الإفتاء بدافع التفرغ للعبادة، يخلق فراغاً إفتائياً خطيراً يملأه المفتون الحرفيون الذين يُصدرون أحكاماً جافة لا تراعي "أحوال ومقامات" السائلين، مما قد يدمر البناء النفسي للمستفتين. لذا، جاء التوجيه الصارخ بضرورة (الصمود الإرشادي) وتحمل أمانة العاصمة؛ ليؤكد أن المربي الصوفي الحقيقي لا يهرب من واقعه، بل يغوص في قلب معاناة الجماهير ليرتقي بهم.

واخيرا تُبرهن هذه الدراسة الاستقصائية المستلة من التراث العراقي المعاصر، على أن البصيرة العرفانية ليست ترفاً انعزالياً أو تقوقعاً على الذات، بل هي محرك ديناميكي لقيادة المجتمع. لقد وظفت المدرسة الصوفية السنية أدوات "الكشف والرؤى" كجهاز ضبطٍ ذاتي (Self–Regulation) يحمي العلماء أنفسهم من الانزلاق

في (أنانية الخلاص الفردي). إن المفتي العارف الحقيقي هو الذي يقمع حظ نفسه من "السكر الروحي الخالص"، مدركاً أن إرشاد حائر، أو جبر كسر مستفتٍ، أو إصدار فتوى تطمئن بها نفس قلقة في عصور الأزمات، هو عمل لا يقل عن رتبة الولاية التي ترتكز عليها استقامة المجتمعات.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد رحلة استقرائية وتحليلية في أمهات التراث الصوفي السني، تتبّع فيها البحث أثر "علم المكاشفة والفراسة النورانية" في تكوين البصيرة الإفتائية وتوجيه السلوك الإنساني، متجاوزاً بذلك المقاربات الفقهية الظاهرية الجافة. فقد خلصت الدراسة إلى جملة من النتائج العلمية والتوصيات العملية، يُجملها الباحث في الآتي:

أولاً: النتائج

١. إثبات المشروعية الإبستمولوجية لـ "علم المكاشفة" بالدليل القرآني والنبوي، وأن أئمة التصوف أحدثوا نقلة بتحويل المفتي من قاضٍ مادي إلى (طبيب للقلوب).
٢. اشتراط (التخلية والتحلية) هو التطبيق الأقدم والأدق لمبدأ الحياد الإرشادي ومنع التحويل المضاد في علم النفس المعاصر.
٣. المربي العارف لا يعتمد سياسة التنميط، بل يُفرد التوجيه السلوكي باستخدام (علم الأحوال والمقامات)، ويستخدم فتاوى (الرخصة والعزيمة) لاحتواء المنقبض وضبط المبسوط.
٤. فاعلية العيادة الصوفية في علاج الأمراض المعاصرة كالنرجسية بابتكار تقنية (الصدمة السلوكية والعلاج بالترك)، والوسواس القهري بـ (إسقاط التدبير).

ثانياً: التوصيات

١. التطوير الأكاديمي بإدماج مقررات التصوف الإسلامي السني ضمن مناهج الإرشاد وعلم النفس التربوي في الجامعات.
٢. التأهيل المهني بإخضاع المتصدرين للإفتاء لدورات مكثفة في الذكاء الوجداني وفقه الأحوال والمقامات لتجنب الفتاوى الحرفية الجافة.

٣. توجيه الباحثين لدراسة التراث العرفاني لأقطاب الصوفية وتفكيكه بأدوات علم النفس المعاصر لاستخراج استراتيجيات العلاج الوقائي.

---

(١) **علم المكاشفة:** يُعرّفه حجة الإسلام الغزالي بأنه نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من الصفات المذمومة، ينكشف به الغطاء حتى تتضح حقائق الأمور الخفية ودوافع النفوس، في مقابل "علم المعاملة" الذي يختص بضبط أعمال الجوارح الظاهرة كالفقه. (الغزالي،٢٠٠٥،ج١،ص٢٠-٢١).

(٢) **يُقصد بأمهات التراث الصوفي السني:** المصادر التأسيسية التي قعّدت للتصوف السلوكي والأخلاقي (طريقة الإمام الجنيد ومن تبعه). ومن أبرزها: (الرعاية لحقوق الله) للمحاسبي، و(قوت القلوب) لأبي طالب المكي، و(الرسالة) للقشيري و(إحياء علوم الدين) للغزالي." وسياتي التعريف عن كل علم منهم.

(٣) **الذكاء الوجداني (Emotional Intelligence):** قدرة الفرد على إدراك انفعالاته وانفعالات الآخرين (المستفتين) وفهم دوافعهم العميقة، وتوظيف هذا الإدراك في توجيه السلوك وحل الأزمات. وهو التوصيف السيكولوجي المعاصر لملكة "الفراسة الصوفية" التي تخترق حُجب المسترشد (جولمان،٢٠٠٠،ص٦٥).

(٤)**التشخيص الإكلينيكي:** هو مصطلح في علم النفس والطب يُقصد به عملية الفحص والتقييم الشامل والمباشر لحالة الفرد (عبر المقابلة والملاحظة الدقيقة وجهاً لوجه لتحديد طبيعة الاضطراب النفسي أو السلوكي وجذوره العميقة). ويُقصد به في هذا البحث: قدرة المربي العارف (طبيب القلوب) -عبر ملكة الفراسة والكشف- على الفحص المباشر والدقيق للحالة الباطنية للمستفتي، وإدراك الآفات النفسية الخفية (كالكبر، والرياء، والعُجب) الكامنة وراء سؤاله وأفعاله الظاهرة، تمهيداً لتقديم التوجيه الإفتائي والتربوي الأنسب لحالته.

(٥) **الدفاعات النفسية:** حيل أو آليات عقلية لاشعورية (غير واعية) يستخدمها الإنسان لحماية نفسه من القلق، أو لحماية صورته المزيفة أمام الناس (مثل: الإنكار، أو التبرير). والمفتي البصير هو من يخترق هذه الأقنعة ليعرف دافع المستفتي الحقيقي. (زهران، ٢٠٠٥أ،ص١٢٠).

(٦) **استبصار الخواطر:** مصطلح مركب من نحت الباحث يجمع فيه بين المفهوم الصوفي "كشف الخواطر"، (اطلاع المربي على ما يضمره السالك) المُقرر في التراث العرفاني. (القشيري،٢٠٠١،ص٢٤٠)،

(٧) **الإبستمولوجية:** مصطلح يُقصد به في الفلسفة "نظرية المعرفة"؛ أي المبحث الذي يدرس طبيعة المعرفة الإنسانية، ومصادرها، وحدودها، ومدى موثوقيتها (صليبا،١٩٨٢،ج ١،ص٦١). ويُقصد بـ "التأسيس الإبستمولوجي" في سياق هذا البحث: البرهنة علمياً وشرعياً على أن مدرسة التصوف السني تمتلك أدوات إدراكية متكاملة؛ فلا تقتصر مصادر المعرفة لديها على الحواس والعقل المادي، بل تُثبت أن (الكشف والفراسة) هما "مصادر معرفية" صحيحة. مع التأكيد المطلق على أن هذه المصادر الباطنية تُستخدم كأدوات (للتشخيص التربوي وتعديل السلوك) ولا تُستخدم أبداً لـ (تشريع الأحكام أو تحليل الحرام)،وهو ما أصّل له الإمام الغزالي حين أثبت الحجية المعرفية لـ "نور الكشف" واعتبره من أعلى مراتب الإدراك واليقين لتشخيص أمراض النفوس (الغزالي،١٩٧٣،ص٥٤).

(٨) **الإمام الجنيد:** أبو القاسم الجنيد بن محمد البغدادي (ت ٢٩٧هـ)، الملقب بـ "سيد الطائفة"، من أئمة التصوف السني المعتدل والمقيد بالكتاب والسنة (الذهبي، ١٩٨٥،ج١٤،ص٦٦).

(٩) **محيي الدين محمد بن علي بن عربي** (ت ٦٣٨هـ)،الملقب بـ "الشيخ الأكبر"، من كبار العارفين وفلاسفة التصوف، صاحب موسوعة "الفتوحات المكية". (الذهبي،١٩٨٥،ج٢٣،ص٤٨).

(١٠) **عبد العزيز بن مسعود الدباغ** (ت ١١٣٢هـ)،عارف بالله من المغرب، فتح الله عليه بعلوم باطنية عميقة دوّنها تلميذه في كتاب "الإبريز". (الزركلي،٢٠٠٢،ج٤،ص٢٩).

(١١)**أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي** (ت ٧٩٠هـ)،إمام أصولي مالكي، ومؤسس علم المقاصد الشرعية في كتابه "الموافقات". (التنبكتي،١٩٨٩،ص٤٦).

(١٢)**أبو حامد محمد بن محمد الغزالي** (ت ٥٠٥هـ)،الملقب بـ "حجة الإسلام"، دمج بين الفقه والتزكية في كتابه "إحياء علوم الدين". (الذهبي،١٩٨٥،ج١٩،ص٣٢٢).

(١٣) **أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري** (ت ٤٦٥هـ)،إمام في الفقه والتصوف، صاحب "الرسالة القشيرية" التي قعّدت أصول التصوف السني المنضبط. (الذهبي،١٩٨٥،ج١٨،ص٢٢٧).

(١٤) **السيكولوجية (Psychological)**: نسبة إلى "علم النفس". ويُقصد بها في سياق هذا البحث: المقاربة والتحليل الذي يهتم بدراسة السلوك، والانفعالات الوجدانية، والدوافع اللاشعورية التي تحرك المستفتي، وكيفية فهم المربي لها بدلاً من الاكتفاء بالحكم الفقهي الظاهر .(راجح، ١٩٧٣،ص١٥).

(١٥)**علم الظاهر وعلم الباطن**: علم الظاهر هو المختص بضبط الأحكام الفقهية المتعلقة بحركات الجوارح الظاهرة. وعلم الباطن هو المختص بأعمال القلوب وتزكيتها، وإدراك المقاصد والمآلات الخفية وراء الأفعال. وكلاهما متلازمان لا يغني أحدهما عن الآخر، وكمال المفتي في الجمع بينهما (الغزالي، ٢٠٠٥،ج١،ص٢٢).

(١٦) يُنظر للتوسع في هذا التفسير الإشاري وتوجيه الآيات: (تفسير التستري) لسهل التستري (ص. ١٠٤)، و(لطائف الإشارات) للإمام القشيري، ومن التفاسير المعاصرة (روح المعاني) للإمام الألوسي (ج ٨،ص٣٢٠) عند تفسيره للآيات المذكورة.

(١٧)**الاستبصار**: في علم النفس، هو الفهم العميق والمفاجئ لطبيعة المشكلة النفسية والدوافع الكامنة وراءها. ويُقارب في المفهوم الصوفي مَلَكَة "البصيرة والفراسة" التي ينفذ بها المُربي لاختراق ظواهر الأمور وإدراك حقيقتها. (طه وآخرون، ١٩٩٣، ص. ٥٥).

(١٨) **المُحَدَّثُون (بفتح الدال)**: جمع مُحَدَّث؛ ولا يُقصد بهم رُواة الحديث، بل هم (المُلْهَمون) الذين يُلقى في رُوعهم (قلوبهم) الصواب والحق، فينطقون به كأنهم حُدِّثوا به من جهة خفية دون أن يكونوا أنبياء. وهو مقام جليل أثبته النبي صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب، وتوارثه العارفون كأصل لمشروعية "الفراسة" (ابن حجر العسقلاني، ١٩٥٩، ج ٧، ص. ٥٠).

(١٩) خرجه الترمذي في سننه (رقم ٣١٢٧) واستغربه. وقد ضعّفه بعض المحدثين سنداً، غير أن الحافظ ابن حجر، والسيوطي، حسّنوه بمجموع طرقه وشواهده، وتلقاه العلماء بالقبول للعمل بمعناه في التزكية."

(٢٠) هذا التكييف للكشف بأنه (قوة إدراكية وفهم لمراد الشارع) ليس ابتداعاً لتشريع جديد، بل هو الوجه الروحي لما يُعرف في أصول الفقه ومقاصد الشريعة بـ (تحقيق المناط الخاص وفهم الواقع). وقد أصّل الإمام ابن القيم لهذه (القوة الإدراكية) في صناعة الفتوى، مبيناً أن المفتي لا يُسدد لإدراك الحق إلا بنوعين من الفهم: أحدهما فهم النص، والآخر: "فهم الواقع، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والعلامات والفراسة" ليطابق بين حال السائل الحقيقي وبين مراد الله (ابن القيم،١٩٩١،ج ١،ص٨٧). ويعضد ذلك ما قرره الإمام الشاطبي حين بيّن أن المفتي الحاذق يتصرف كـ "طبيب النفوس"؛ فلا يُنزل الأحكام الكلية بشكل آلي جاف،

بل ينظر بنور بصيرته في (مآلات الأفعال) ليُوقع حكم الشارع على ما يلائم الحال الباطني والخاص للمستفتي (الشاطبي،١٩٩٧،ج٥،ص٢٧٣). وعليه، فـ"الكشف" هنا هو أداة (تنزيل للحكم) وليس أداة (تشريع).

(٢١) **علم المعاملة:** في الاصطلاح الصوفي وعند الإمام الغزالي، لا يُقصد به التعاملات المالية فقط، بل يُقصد به "العلم بأحكام الشريعة المتعلقة بأعمال الجوارح الظاهرة" (كالطهارة، والصلاة) وأعمال القلوب المحمودة والمذمومة. وهو مقدمة شرعية واجبة لـ "علم المكاشفة" (الغزالي،٢٠٠٥،ج١،ص٢٠).

(٢٢) **علماء الرسوم:** مصطلح نقدي في التراث العرفاني، لا يُقصد به الطعن في أئمة الفقه والشريعة، بل يُقصد به تحديداً: الصنف من المتعالمين والمفتين الذين وقفوا عند "رُسوم" الدين (أي ظواهره وقوالبه الشكلية) واكتفوا بالجدل والمراء، وأغفلوا جوهر الدين المتمثل في تزكية النفوس (ابن عجيبة، ١٩٩٩،ص٤٥).

(٢٣) **محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي** (ت ٣٨٦هـ)،إمام متصوف سني، صاحب كتاب "قوت القلوب في معاملة المحبوب". (الذهبي،١٩٨٥،ج١٦،ص٥٣٦).

(٢٤) **النرجسية الروحية:** حالة سيكولوجية خفية يوظف فيها الفرد ممارساته وتنسكه الديني كوسيلة لتضخيم (الأنا)،والشعور بالاستعلاء والأفضلية الأخلاقية على الآخرين، وهو المعادل الدقيق لما يُسميه الصوفية بـ "رؤية العمل والعُجب". (المحاسبي، ٢٠٠٠، ص. ٢٥٠).

(٢٥) **المُتَزَكِّي:** (تم ضبط الكلمة بالشكل الصحيح استجابة لملاحظة المحكم) اسم فاعل من التزكية، وهو المفتي أو المربي الذي خضع لتربية روحية طهرت باطنه من الآفات والشهوات الخفية كالكبر، ليصبح مؤهلاً لتوجيه الآخرين. لأن فاقد الشيء لا يعطيه، وإصلاح الطبيب لنفسه مُقدَّم على علاجه لغيره (المحاسبي، ٢٠٠٠،ص٨٥).

(٢٦) **الحارث المحاسبي:** أبو عبد الله الحارث بن أسد (ت ٢٤٣هـ)،يُعد الرائد الأول للتحليل النفسي وتفكيك آفات النفوس في الإسلام، وصاحب كتاب "الرعاية لحقوق الله" (الخطيب البغدادي،٢٠٠١،ج٨،ص٢١١).

(٢٧) **التخلية والتحلية:** ينتج من هذا التلازم بينهما تولّد مَلَكة (الفراسة والتسديد) أصلاً مقرّراً في التراث التربوي. وقد نص الإمام القشيري صراحة على هذا التسلسل السلوكي بنقله القاعدة الذهبية للعارف شاه الكرماني الذي يقول: "مَنْ غضّ بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات [وهي مرحلة التخلية]،وعمَّر باطنه بدوام المراقبة، واعتاد أكل الحلال [وهي مرحلة التحلية]... لم تخطئ له فراسة" (القشيري،٢٠٠١،ص٢٣٨). كما أصّل الإمام الغزالي لهذا المعنى بتمثيل القلب بـ "المرآة"؛ مبيناً أن نور الكشف والفراسة لا يتجلى ولا ينطبع في مرآة القلب لتشخيص خفايا النفوس إلا بعد جَلائها وتنقيتها من صدأ الشهوات والأخلاق المذمومة (التخلية)،وتوجيهها شطر الحق بالفضائل والافتقار (التحلية) (الغزالي،٢٠٠٥،ج٣،ص١٢-١٣).

(28) **التحويل المضاد:** التحويل المضاد (Countertransference): مفهوم في التحليل النفسي يُشير إلى ردود الفعل العاطفية واللاشعورية التي يُسقطها المعالج (أو المربي) على المسترشد، نتيجة لعقده وتجاربه الشخصية غير المحلولة، مما يُفقد الإرشاد موضوعيته (لابلانش وبونتاليس، ١٩٩٧، ص. ١٥٠). وتُعد "التخلية" في التصوف هي الآلية الوقائية لمنع هذا الإسقاط.

(٢٩) **"المتزكي** (اسم فاعل من التزكية): هو المفتي أو المربي الذي خضع لتربية روحية طهرت باطنه من الآفات والشهوات الخفية كالكبر، ليصبح مؤهلاً لتوجيه الآخرين".

(٣٠) **أبو عبد الله الحارث بن أسد** (ت ٢٤٣هـ)، يُعد الرائد الأول للتحليل النفسي وتفكيك آفات النفوس في الإسلام، وصاحب كتاب "الرعاية لحقوق الله" (الخطيب البغدادي،٢٠٠١،ج٨،ص٢١١).

(٣١) **تاج الدين أحمد بن محمد بن عطاء الله السكندري** (ت ٧٠٩هـ)،فقيه مالكي وصوفي شاذلي، اشتهر بكتابه "الحكم العطائية". (ابن حجر العسقلاني،١٩٩٣،ج١،ص٢٧٣).

(٣٢) **استعارة المرآة:** هذا التشبيه العرفاني (القلب كالمرآة) مقرر ومفصل بشكل دقيق عند الإمام الغزالي في: إحياء علوم الدين، ج ٣، في (كتاب شرح عجائب القلب).

(٣٣) **أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرماني** (ت قريبا من ٣٠٠هـ)،من كبار مشايخ التصوف، واشتهر بصدق المراقبة والفراسة الصائبة. (السلمي،١٩٥٣،ص١٩١).

(٣٤) **السيكولوجية:** نسبةً إلى "علم النفس" (Psychology). ويُقصد بها في سياق هذا البحث: المقاربة والتحليل الذي يهتم بدراسة السلوك الإنساني،والانفعالات الوجدانية،والدوافع الخفية واللاشعورية التي تُحرك المستفتي،وكيفية فهم المُربي لها بدلاً من الاكتفاء بالحكم الفقهي الظاهر.

(٣٥) **الديناميكية:** تُشير إلى التفاعل،والحركة،والتغير المستمر،وعدم الثبات. وتُستخدم في البحث لوصف طبيعة النفس البشرية المتقلبة التي تتأثر باستمرار بالواردات والانفعالات (كالقبض والبسط)،مما يقتضي مرونة من المُربي في التوجيه.

(٣٦) **التلوين والتمكين:** "التلوين" هو مقام السالك المبتدئ الذي يتقلب في أحواله ولا يستقر (عدم استقرار وجداني). و"التمكين" هو مقام العارف المنتهي الذي رسخ في الحق واطمأن قلبه فلا تستفزه الواردات الانفعالية. (القشيري، ٢٠٠١،ص٦٠).

(٣٧) **الأحوال والمقامات:** "الحال" عند الصوفية هو ما يَرِد على القلب من طوارق وجدانية (كالفرح أو الحزن) من غير تعمد وهو سريع الزوال. أما "المقام" فهو المرتبة الروحية التي يرسخ فيها السالك بمجاهدته (كالصبر والتوكل) وتصبح صفة ثابتة فيه. (القشيري، ٢٠٠١، ص. ٥٣–٥٤).

(٣٨) **نظرية السمات** والحالة: مقاربة في علم نفس الشخصية تُفرق بين "السمة" (Trait) وهي خصيصة سلوكية مستقرة وثابتة (تُعادل "المقام" الصوفي)،وبين "الحالة" (State) وهي استجابة انفعالية مؤقتة وعابرة (تُعادل "الحال"). (عبد الخالق، ١٩٩٦، ص٣١٥).

(٣٩) **التشخيص التفريقي:** أداة عيادية منهجية تهدف إلى التمييز الدقيق بين حالتين تشتركان في نفس الأعراض الظاهرية (كالتفريق بين الورع المحمود الذي يبعث على الطمأنينة، والوسواس القهري المَرَضي الذي يبعث على القلق)،لضمان تقديم التوجيه الصحيح. (الجمعية الأمريكية للطب النفسي، ٢٠١٤، ص٢٥).

(٤٠) **الاحتراق الروحي:** حالة من الإرهاق والاستنزاف العاطفي والجسدي الشديد، تُصيب السالك أو المريض نتيجة الإفراط في التشديد على نفسه بالعبادات أو الوساوس دون ترويح، مما قد يؤدي به إلى ترك العمل بالكلية أو الانتكاس. (عسكر، ٢٠٠٠، ص. ٨٨).

(٤١) **الصلابة النفسية (Psychological Hardiness):** سمة شخصية تعكس قدرة الفرد على مقاومة الضغوط والاحتفاظ بالاتزان الانفعالي تحت الظروف الصعبة والواردات القوية. وتقابل في التراث الصوفي مرحلة "التمكين"؛ حيث يرسخ السالك في الحق فلا تستفزه الطوارئ والأزمات (مخيمر،٢٠٠٢،ص١٢).

(٤٢) القبض والبسط: حالتان وجدانيتان متعاقبان؛ "القبض" وارد روحي يُحدث انكماشاً وضيقاً في القلب يصحبه فتور، و"البسط" وارد يحدث انشراحاً واتساعاً يصحبه نشاط ورجاء (القشيري، ٢٠٠١،ص.٥٧٠).

(٤٣) **الإكلينيكية أو العيادية:** مصطلح يُطلق في الطب وعلم النفس على الممارسة "التطبيقية والعملية" المباشرة، والتي تعتمد على فحص الحالة (المريض/المسترشد) وجهاً لوجه وتشخيص عللها العميقة. وتُقابل التنظير الأكاديمي المجرد.

(٤٤) **العزيمة والرخصة:** في الاصطلاح الأصولي الفقهي؛ العزيمة هي: الأحكام الشرعية الكلية الأصلية التي شُرعت ابتداءً لتكون قانوناً عاماً للمكلفين من غير اختصاص بحال عذر. والرخصة هي: الأحكام التي شُرعت استثناءً للتيسير ورفع المشقة بناءً على أعذار طارئة (الجرجاني،١٩٨٣،ص١٠٩-١٥٢).

أما في التكييف السيكولوجي والتربوي لهذا البحث: فهما يتحولان من مجرد "قوالب قانونية" إلى (أدوات هندسة وجدانية) بيد المربي العارف؛ حيث يُوظّف الفتوى بـ (الرخصة) كـ "إسعاف نفسي" لاحتواء المستفتي المُنقبض واليائس لمنعه من الاحتراق الروحي، ويُوظّف الفتوى بـ (العزيمة) كـ "كابح سلوكي" لردع المستفتي المبسوط (المُغتر) لضبط اندفاعه. وهذا التطبيق هو عينُ ما أشار إليه الإمام الشاطبي من أن المفتي الحاذق يتصرف كـ "طبيب النفوس"؛ يحمل المُفرّط المائل للانحلال على العزيمة، ويحمل المُتشدد المتعمق على الرخصة ليردهما إلى التوازن والاعتدال (الشاطبي،١٩٩٧،ج٥،ص٢٧٨).

(٤٥) **الاستتباب الوجداني:** حالة التوازن والاستقرار النفسي الداخلي التي يسعى المُربي للوصول بالمريد إليها، وذلك عبر إعادته إلى نقطة الاعتدال (استخدام الفتاوى المرنة لرفع معنوياته عند الانقباض، والفتاوى الحازمة لضبطه عند الغرور والاندفاع).

(٤٦) **الصدمة السلوكية:** تدخل إرشادي وتوجيهي مفاجئ ومخالف لتوقعات المسترشد، يهدف إلى إحداث هزة وجدانية ومعرفية تكسر غروره ودفاعاته النفسية.

(٤٧) **القصد المتناقض:** تقنية إرشادية يطلب فيها المُعالج من المسترشد أن يتعمد ممارسة السلوك الذي يخشاه أو يشتكي منه، بهدف كسر الحلقة المفرغة للمقاومة النفسية وتحطيم تضخم (الأنا) بطريقة غير متوقعة. (فرانكل، ١٩٨٢، ص. ١٣٠).

(٤٨) **التنافر المعرفي:** حالة من التوتر والانزعاج النفسي تنشأ عندما يحمل الفرد معتقدات متناقضة،أو عندما يتناقض سلوكه الظاهر مع قناعاته الباطنية (كادعاء التواضع مع إضمار الكبر)،مما يدفعه لتبني آليات دفاعية لتبرير سلوكه. (الزغول، ٢٠٠٤،ص١٤٥).

(٤٩) **أبو محمد سهل بن عبد الله التستري** (ت ٢٨٣هـ)، من كبار أئمة الصوفية، له اجتهادات وتفسير إشاري للقرآن الكريم. (الذهبي،١٩٨٥،ج١٣،ص٣٣٠).

(٥٠) **التنفيس الانفعالي:** عملية التحرر والتفريغ للمشاعر المكبوتة (كالشك، والخوف، والقلق) والتعبير عنها بحرية، مما يؤدي إلى الشعور بالراحة النفسية. ويحدث هذا غالباً عندما يشعر المريد باحتواء شيخه له ومعرفته بخفايا صدره. (طه وآخرون، ١٩٩٣،ص٢١٥).

(٥١) **إسقاط التدبير:** مصطلح عرفاني يعني ترك الاعتماد على الحول والقوة الشخصية وتدبير العقل في جلب المنافع أو دفع المضار، وتفويض الأمر بالكلية لله تعالى مع الأخذ بالأسباب الظاهرة دون التعلق بها (وهو علاج جذري للوسواس والكمالية). (ابن عطاء الله السكندري،١٩٧٣،ص١٥).

(٥٢) **التعرض ومنع الاستجابة:** التقنية الذهبية في العلاج المعرفي السلوكي لعلاج الوسواس القهري. تعتمد على تعريض المريض للمثير المسبب للقلق (كالشك في الطهارة) مع منعه الصارم من أداء السلوك القهري (كإعادة الوضوء) حتى ينطفئ القلق تدريجياً. (إبراهيم، ٢٠٠٨، ص١٧٥).

(٥٣) يُعبر عن فراسة المربي في التقاط ذبذبات "الخاطر السيئ" والنية المنحرفة في قلب المريد بمجرد تشكلها، والتدخل لتشخيصها وتصحيحها قبل أن تُترجم إلى معصية أو سلوك تدميري في الواقع.

(٥٤) **اللوح الباطني/قراءة الظلمة:** استعارة صوفية. وقراءته لا تعني قطعاً ادعاء علم الغيب المطلق (وهو محال ومخالف للشرع)، بل هي "فراسة إكلينيكية" حادة تدرك الانعكاسات النفسية (الظلمة والتشوش) التي تتركها الأفكار والسلوكيات المنحرفة على ملامح المسترشد ولغة جسده العميقة (ابن المبارك اللمطي،٢٠٠٢،ص١٤٥).

(٥٥) أحمد بن المبارك اللمطي : (ت ١١٥٦هـ)، فقيه وأصولي مغربي، تلميذ الشيخ عبد العزيز الدباغ ومدوّن علومه في كتاب "الإبريز". (الزركلي،٢٠٠٢،ج١،ص٢٠٢).

(٥٦) **التحالف العلاجي:** علاقة الثقة، والأمان، والتعاون الوطيدة التي تنشأ بين المُعالج (الشيخ المُربي) والمريض (المريد)،وتُبنى على الاحترام والسرية وعدم الفضح، وهي أساس نجاح أي توجيه أو تعديل للسلوك. (زهران،٢٠٠٥ب، ص٢٥٠).

(٥٧)**القبول الإيجابي غير المشروط:** مصطلح في العلاج النفسي المعاصر (لكارل روجرز) يعني تقبل المُربي أو المُعالج للمسترشد واحترامه كإنسان بغض النظر عن أخطائه أو معاصيه، وهو ما يفعله المربي الصوفي حين يستر على المريد ولا يفضحه ليساعده على التوبة.

(٥٨) قاسم بن الملا رجب القيسي (ت ١٩٥٥م): من كبار فقهاء العراق وعلمائهم الأعلام، تولى منصب الإفتاء العام في بغداد، وكان مثالاً للعالم الرباني الذي يجمع بين رسوخ الفقه الظاهري والتربية الروحية الباطنية الشفافة، تاركاً أثراً عميقاً في توجيه المجتمع البغدادي (السامرائي،١٩٨٢،ص٥٣١).

(٥٩)محمود مهاوش الكبيسي (ت ١٩٨٣م): من الشخصيات البغدادية المعروفة بالصلاح ومصاحبة العلماء. (تستند هذه الرواية إلى تسجيل صوتي موثق ومتداول في الأوساط العلمية والتراثية العراقية، والذي يُعد وثيقة هامة في حفظ التاريخ الشفهي للإرشاد الديني والسلوكي في العراق).

(٦٠) الأبدال: مقام روحي رفيع في التراث الصوفي السني، وهم طبقة من كبار الأولياء والصالحين الذين يحفظ الله بهم توازن الأرض روحياً، وسُموا بذلك لأنهم إذا مات أحدهم أبدل الله مكانه غيره ليقوم مقامه في خدمة الدين والخلق (الجرجاني،١٩٨٣،ص٩).

(٦١) **التخطي الروحي:** مصطلح صاغه عالم النفس (جون ويلوود John Welwood) عام ١٩٨٤م، ويُشير إلى الميل لاستخدام المعتقدات والممارسات الروحية لتجنب مواجهة المشاعر المؤلمة، أو التهرب من الصراعات النفسية والمسؤوليات الواقعية غير المحلولة. (أبو أسعد،٢٠١١،ص١١٢).

قائمة المصادر والمراجع:

١. القران الكريم.

٢. إبراهيم، عبد الستار. (١٩٩٨). **علم النفس الإكلينيكي: مناهجه ونظرياته.** القاهرة: دار المريخ.

٣. إبراهيم، عبد الستار. (٢٠٠٨). **العلاج السلوكي المعرفي الحديث: أسسه وتطبيقاته.** القاهرة: الدار العربية للنشر والتوزيع.

٤. ابن المبارك، أحمد بن المبارك اللمطي. (٢٠٠٢). **الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ** (تحقيق غياث عبد الجواد ومنصور عبد الجواد). دار الكتب العلمية.

٥. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي. (١٩٩٣). **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**. مجلس دائرة المعارف العثمانية.

٦. ابن عربي، محمد بن علي (محيي الدين). (١٩٩٩). **الفتوحات المكية** (تحقيق أحمد شمس الدين). دار الكتب العلمية.

٧. ابن عطاء الله السكندري، أحمد بن محمد. (١٩٧٣). **التنوير في إسقاط التدبير** (تحقيق عبد الحليم محمود). القاهرة: دار الكتب الحديثة.

٨. ابن عطاء الله السكندري، أحمد بن محمد(٢٠٠٨) **الحكم العطائية** ت عبد الحميد محمود. دار المعارف.

٩. أبو أسعد، أحمد عبد اللطيف. (٢٠١١). **الإرشاد الديني والروحي**. عمّان: دار المسيرة للنشر والتوزيع.

١٠. البخاري، محمد بن إسماعيل. (٢٠٠١). **صحيح البخاري**، ت محمد زهير الناصر. دار طوق النجاة.

١١. التادفي، محمد بن يحيى. (١٩٩٣). **قلائد الجواهر في مناقب تاج الأولياء** محيي الدين عبد القادر الجيلاني. دار الكتب العلمية.

١٢. الترمذي، محمد بن عيسى.(١٩٩٨) **سنن الترمذي**، تحقيق بشار عواد. دار الغرب الإسلامي.

١٣. التنبكتي، أحمد بابا بن أحمد. (١٩٨٩). **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**. كلية الدعوة الإسلامية.

١٤. الجرجاني، علي بن محمد. (١٩٨٣). **التعريفات**. بيروت: دار الكتب العلمية.

١٥. الجمعية الأمريكية للطب النفسي. (٢٠١٤). **الدليل التشخيصي والإحصائي الخامس للاضطرابات النفسية** (DSM-5) (ترجمة أنور الحمادي وآخرين). الرياض: دار طويق للنشر.

١٦. الحفني، عبد المنعم. (٢٠٠٦). **المعجم الشامل لمصطلحات الفلاسفة والصوفية** ط٣ مكتبة مدبولي.

١٧. الخطيب البغدادي، أحمد بن علي. (٢٠٠١). **تاريخ مدينة السلام** (تاريخ بغداد) (تحقيق بشار عواد معروف). دار الغرب الإسلامي.

١٨. الذهبي، محمد بن أحمد. (١٩٨٥). **سير أعلام النبلاء** (تحقيق شعيب الأرنؤوط). مؤسسة الرسالة.

١٩. راجح، أحمد عزت. (١٩٧٣). **أصول علم النفس**. الإسكندرية: المكتب المصري الحديث.

٢٠. الرخاوي، يحيى. (٢٠٠٠). **دراسات في علم النفس الوجودي**. دار المقطم للنشر والتوزيع.

٢١. الزركلي، خير الدين. (٢٠٠٢). **الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين** (ط. ١٥). دار العلم للملايين.

٢٢. الزغول، رافع نصير. (٢٠٠٤). **علم النفس المعرفي**. عمّان: دار الشروق للنشر والتوزيع.

٢٣. زهران، حامد عبد السلام. (٢٠٠٥أ). **الصحة النفسية والعلاج النفسي** (ط. ٤). القاهرة: عالم الكتب.

٢٤. زهران، حامد عبد السلام. (٢٠٠٥ب). **التوجيه والإرشاد النفسي** (ط. ٤). القاهرة: عالم الكتب.

٢٥. السامرائي، يونس الشيخ إبراهيم. (١٩٨٢). **تاريخ علماء بغداد في القرن الرابع عشر الهجري**. بغداد: مطبعة الأوقاف والشوؤن الدينية.

٢٦. السلمي، محمد بن الحسين. (١٩٥٣). **طبقات الصوفية** (تحقيق نور الدين شريبة). دار الشعب.

٢٧. طه، فرج عبد القادر، وآخرون. (١٩٩٣). **موسوعة علم النفس والتحليل**.الكويت: دار سعاد الصباح.

٢٨. عبد الخالق، أحمد محمد. (١٩٩٦). **قياس الشخصية**. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

٢٩. عسكر، علي. (٢٠٠٠). **ضغوط الحياة وأساليب مواجهتها**. القاهرة: دار الكتاب الحديث.

٣٠. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. (٢٠٠٥). **إحياء علوم الدين**. دار ابن حزم.

٣١. فرانكل، فيكتور. (١٩٨٢). **الإنسان يبحث عن المعنى**: مقدمة في التسامي بالنفس (ترجمة طلعت منصور). الكويت: دار القلم.

٣٢. القشيري، عبد الكريم بن هوازن. (٢٠٠١). **الرسالة القشيرية في علم التصوف** (تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف). دار المعارف.

٣٣. لابلانش، جان، وبونتاليس، جان برتران. (١٩٩٧). **معجم مصطلحات التحليل النفسي** (ترجمة مصطفى حجازي). بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.

٣٤. المحاسبي،الحارث بن أسد.(٢٠٠٠).**الرعاية لحقوق الله**،ت عبدالقادر أحمد عطا. دار الكتب العلمية.

٣٥. مخيمر، عماد محمد. (٢٠٠٢). **الصلابة النفسية**. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

٣٦. **المعجم الرسمي جمعية علم النفس الأمريكية** .(n.d.). APA dictionary of psychology. Retrieved from https://dictionary.apa.org

٣٧. المكي، محمد بن علي (أبو طالب). (٢٠٠٥). **قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد** (تحقيق عاصم إبراهيم الكيالي). دار الكتب العلمية.